

خطابات حسن البنا

الشاب إلى أبيه

مع ترجمة مسهبة وموثقة لحياة الوالد

الشيخ أحمد البنا

جمعها وعقب عليها وكتب الترجمة

جمال البنا

المحتويات

- فهرس
- مقدمة

القسم الأول

الفصل الأول

الفصل الثاني : عرض وتحليل خطابات حسن البنا الشاب إلى أبيه

- المجموعة الأولى مجموعة العُطف
- المجموعة الثانية الإسماعيلية
- المجموعة الثالثة قنا - القاهرة

القسم الثاني

الفصل الثالث: توثيق ما جاء بالفصل الأول خاصاً بالشيخ الوالد رحمه الله

الأحكام والآراء والتقريرات في ترجمة الشيخ الوالد أو التعليق على خطابات الإمام الشهيد — رحمهما الله مما جاء في هذا الكتاب — هي آراء شخصية اجتهادية يتحمل المؤلف مسئوليتها. فقد ربطت معزة خاصة ما بينه وبين الوالد والشقيق، ربما لأنه "آخر العنقود" للوالد والأخ الأصغر للشقيق، ولكن هذه الميزة نفسها جعلته لا يعايش الأحداث السابقة عليه، كما يمكن القول أن أي واحد من الأخوان المسلمين المقربين قد يعرف عن الإمام الشهيد أكثر مما يعرفه أشقاؤه، وهو ما يصدق على المؤلفات بالذات أكثر من غيره.

وقد تصدَّى المؤلف لمهمة إصدار هذا الكتاب لأنه كان هو الذي أوُتمن على أوراق الشيخ ومكتبته، ولأن صناعته هي الكتابة، وقد آنس من نفسه القدرة على الترجمة وعلى استخلاص الأحكام. وقبل هذه كلها.. لأداء واجب نحو الوالد والشقيق لم يكن ليستطيع منه تطللاً.

المؤلف

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم
والحمد لله والصلاة والسلام
على رسول الله

ثمة أسباب عديدة دعنتي لإصدار هذا الكتاب..

- منها أن هذه الخطابات تكشف عن جانب مجهول في حياة الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله، لم يطرق من قبل عندما كان في مستهل الشباب، والنفوس تموج بالعواطف، وتجيش بالتطلعات نحو المستقبل.
- وتكشف هذه الخطابات أن الإمام الشهيد رحمه الله رضي عمّا ارتضاه الله له، وعاش في سلام بين عمل يحبه، وحب يعمل له، هذا الحب الذي جعله يتألق ككل موفق في حبه هو " الدعوة " التي غرست بذرتها في طفولته، وظلت تنمو بين جنبيه، وتتكامل — كما يتكامل في بطن أمه جنين جاء من حب جارف. ومن هنا اتسمت الخطابات بثقة، وأمل، واستبشار وحمدًا لله على توفيقه.
- ومن هذه الأسباب أن هذه الخطابات التي لم يتصور مُرسلها بالطبع أنها ستنتشر يومًا، تكشف عن طبيعة سوية، صريحة تخلو من أية إثارة لتحاييل أو تكلف، كما أنها تكشف عن بر عميق بالوالدين، ما أجدر الشباب اليوم أن يتعلمه. فالإمام البنا رحمه الله كان يقسم مرتبه ما بينه وبين والده، وكان يرى أن هذا هو الواجب الطبيعي، وكان يضيق لأن الضرورات لم تسمح له بالمزيد، وأبرز من هذا البر، الأدب الرفيع في الخطاب، فهو يخاطب الوالد — دائمًا وأبدًا — "سيدي الوالد" أو "سيدي الوالد الجليل" والوالدة "سيدتي الوالدة" وكان هذا دأبه في مستهل شبابه أيام الإسماعيلية حتى أيامه الأخيرة، كما يتضح ذلك من آخر خطباته التي أوردناها، ولم يتعلم الإمام البنا رحمه الله "الإيتيكيت" في مدرسة فرنسية أو يطلع عليه في الآداب العالمية والأوروبية، ولكنه تأدب بأدب مَنْ أدبه الله تعالى فأحسن تأديبه: الرسول (ﷺ) فعرف حق الأب، وحق الأم وأدب الخطاب، وأن كل ما يمكن أن يقدمه من تضحية، وما يلتزم به من أدب قليل في حق الوالدين.
- وإذا كان ثمة إضافة، فهي أن هذا الأدب نحو الوالدين كان جزءًا من الأدب العام الذي اتصف به الإمام الشهيد، فقد كان رحمه الله مهذبًا غاية التهذيب، يرحب بكل من يأتيه، ويصغي إليه ويحتفل به، ويقوم له، ويخاطبه بأحب الألقاب، ويسأل عن حاله وأبنائه وأسرته. ويرد على كل خطاب يصله، وكان يحتفي بأقل الأخوان شأنًا من فلاحين أو عمال أو طلبة في مقتبل العمر، ومن قد تزديهم الأعين لفجاجة منظرهم أو رثاثة ثيابهم، بل كان يلمس فيهم — أكثر من غيرهم — دفء العاطفة وصدق

العلاقة وخلص النية، وكان يستشعر هذا بقلبه، كما يتعلمه من تأديب القرآن الكريم للدعاة نحو الجماهير والعامة والمستضعفين.

• وتكشف هذه الخطابات عن جانب تربوي في الإمام البنّا رحمه الله، وكيف عني بتعليم وتربية أشقائه الذين استقدمهم إلى الإسماعيلية ليطلبوا العلم في المدرسة التي كان هو مدرساً بها وبوجه خاص الشقيق عبد الباسط رحمه الله، وكاتب هذه السطور، وكيف كان يشرف على تحفيظهما قصار السور والأحاديث.

• ومقارنة الخطابات التي أرسلها الإمام الشهيد في الأيام الأولى للإسماعيلية، بل وقبلها (٢٦ - ٢٧) بأخر خطابه المرسله لوالده (سنة ١٩٤٧) ودراسة خطه، توضّح وحدة الخط والأسلوب والصيغة. ويكاد المتأمل فيها أن يقطع بأن كاتبها لم يتوقف، ولم يتردد ولم يضطر إلى شطب أو تعديل. ويلحظ أن السطور تتوالى مموّجةً على الصفحة والحروف مجدولة في الكلمات كضفيرة ذهبية مسترسلة أو كموجات متلاحقة على سطح نهر هادئ، مما يعطي القارئ إحساساً بأن السطور تنبض بالحياة، وأنها بلورة لشخصية صاحبها، أو بصمته الخطية، وانتظام سطورها ينم عن شخصية منتظمة سوية، مستقرة تتجاوز الإرادة فيها مع الذهن. وهذه اللقطة تكشف عن ظاهرة هامة في حياة وعمل الإمام الشهيد رحمه الله هي "الاستمرارية" فالإمام البنّا هدى من شبابه إلى رسالته، بل هو أعد لها من طفولته، بحيث أنه عندما بدأ العمل بالفعل سنة ١٩٢٨، كان يواصل بداية أعد لها سلفاً، وتابعها دون أن يضطر إلى انحراف أو تقطع أو مخالفة، فالخط متصل حتى عام ١٩٤٩ عندما لقي الله. وهذه إحدى النعم التي أنعم الله بها على الإمام الشهيد. وإحدى علامات توفيقه ورضاه، إذ بدأ في سن مبكرة قلماً تتضح فيها الخطوط النهائية لدعوة الدعاة. ولم يضطر - كما اضطر إلى ذلك كثير من الدعاة - إلى تعديل أو تغيير. وإذا كانت دعوة الأخوان المسلمين قد تطورت من الصورة التربوية الصوفية التي كانت عليها أيام الإسماعيلية إلى الصورة السياسية الحياتية، فإن هذا التطور تم في الأطر الإسلامية، وكان هذا التطور دليلاً على قوة وحدة الاتجاه لأنه لم يمس "الثوابت" والخطوط الأساسية فيه. وتثبت إحدى الأوراق التي عثرنا عليها. وأثبتناها في هذا الكتاب، أن الأخوان قد هُذوا إلى اسم "هيئة الأخوان المسلمين" من الثلاثينيات عندما كانت نبتة صغيرة.

• وتكشف هذه الخطابات عن بعض جوانب المجتمع المصري في الثلاثينيات تجهلها، بل لعلها لا تتصورها - أغلبية الشباب اليوم، ولا يُعَدَم القارئ بعض اللقطات عن تطور الأخوان.

* * *

وهناك بعد، سبب آخر هام كان من أقوى أسباب إصدار هذا الكتاب، هو تعريف الجمهور الإسلامي بوالد الإمام الشهيد سيدنا ووالدنا الشيخ أحمد عبد الرحمن البنّا رحمه الله، صاحب الفتح الرباني وقصة كفاحه العجيبة في تصنيف مسند الإمام أحمد بن حنبل وشرحه ثم طبعه وإصداره، التي شغلته قرابة أربعين عاماً. هذا الرجل العظيم الذي نفض يديه من عرض الدنيا. وعكف في وحدة المتبتلين على عمله العلمي الكبير -

لا يشغله شيء عن القراءة والكتابة، التحبير والتدبير، التحقيق والتدقيق وتقصي المراجع من هنا وهناك.. حتى الهند ومطابعها وكتبها. وهو ليل نهار قابع في مكتبه في أحد أزقة القاهرة، لا يزور، ولا يزار، إلا في المناسبات ولا يقرأ الجرائد أو يسمع الراديو أو يشغل نفسه بهذا العالم الذي يضرم بالشهوات والمطامع.

إن من حق هذا الرجل أن يُرفع ذكره — وأن يُكرَّم اسمه. كما أن حق المسلمين أن يعرفوا حياته، ويلموا بكفاحه، ليس فحسب إحياء لذكراه أو تمجيداً لعمله، ولكن أيضاً ليكون لهم فيه أسوة حسنة. وليعلموا أن لا شيء يمكن أن يقف أمام الهمة العالية والعزيمة الصادقة.

رحمهما الله: الأب والابن، ونصّر ثراهما، وأجزل مثوبتهما، وعوضهما في الآخرة. وألحقنا بهم في

الصالحين.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾

"وقل الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى"

رمضان ١٤١٠/مارس ١٩٩٠

جمال البنا

القسم الأول

وهو يتضمن:

الفصل الأول: ترجمة حياة وعمل الوالد الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا...

الفصل الثاني: عرضاً وتحليلاً لخطابات الإمام الشهيد إلى أبيه..

الفصل الأول

ترجمة حياة وعمل الوالد الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا

ترجمة حياة وعمل الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا صاحب (الفتح الرباني)^(١) ووالد الإمام الشهيد حسن البنا - رحمهما الله -

النشأة والصبا:

ولد الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا في قرية شمشيرة مركز فوّة محافظة الغربية، وهي قرية صغيرة لا تختلف عن قرى الدلتا، ولا تتميز عنها باستثناء وقوعها على ضفة النيل مباشرة - وأن المركز الذي تتبعه " فوّة " له تاريخ عريق.

وكان الشيخ رحمه الله يقول أنه ولد سنة ١٣٠٠ هجرية، ويبدو أنه تاريخ سهل على الشيخ حفظه، وهناك ما يؤيد هذه الرواية، فإن الشيخ كان قد استخراج بطاقة من بطاقات إثبات الشخصية حدد فيها سنة ميلاده بأنها سنة ١٨٨٢ وهي توافق سنة ١٣٠٠ هـ^(٢).

وكانت أسرة الشيخ تمتلك عدة فدادين من الأرض تقوم بزراعتها ويعمل فيها أخوه الأكبر "محمد" وكان محمد فلاحاً ماهراً يحسن زراعة أرضه، بل يستصلح بعض الأراضي البور التي كانت شائعة وقتئذ، ومن المحتمل أن أحد أسلاف الأسرة كان يعمل بصناعة البناء. ومن هنا لحق بالأسرة لقب البنا. وهي نقطة لم نحققها^(٣).

(١) الفتح الرباني هو تصنيف مسند الإمام أحمد بن حنبل واسمه بالكامل "الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني وشرحه بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني" وهو في ٢٤ جزء كبيراً.

(٢) كان من صفات الشيخ رحمه الله الدقة والتدوين. وكان يكتب التواريخ الخاصة بحياته وحياة أسرته أولاً بأول في دفاتر عديدة، رأينا بعضها، وظلت موجودة لفترة طويلة لأنها كانت ذات جلود سميقة قوية. وفي سنة ١٣٥٠ هجرية حصل الشيخ على نسخة من كتاب "التوقيقات الإلهامية" وهو كتاب عجيب ونادر ألفه " اللواء المصري " محمد مختار باشا، وطبع سنة ١٣٣١ بمطبعة بولاق مصر المحمية (الموافقة ١٨٩٣ م) وأراد به مؤلفه التوفيق بين التواريخ الهجرية والميلادية بادئاً بالسنة الأولى من الهجرة وهي توافق سنة ٦٢٢ حتى سنة ١٥٠٠ هجرية ٢٠٧٧ م، والكتاب من القطع الكبير ٢٣ × ١٦ سم في ٧٥٢ صفحة. وقد قسم المؤلف كل صفحة لتشغل سنتين. وفي كل سنة ثلاثة جداول أو خانات. تضم أوائل شهورها العربية ويوم أول كل شهر هجري، وما يوافق من شهور السنة القبطية، وما يوافق من شهور السنة الميلادية. وتشمل هذه الخانات قرابة ست سنتيات عرضاً. بينما ملأ باقي السطر بأهم الأحداث التاريخية، إسلامية أو مصرية أو عالمية. كما أنه ينكر في كل سنة غاية فيضان النيل بالقيراط والذراع من مقياس الروضة بدءاً من سنة ٢٠ هجرية (أي ٦٤٠ ميلادية) حتى سنة ١٣٠٩ الموافق ١٨٩١ (أي سنة طبع الكتاب) المهم أن الشيخ رحمه الله عندما حصل على هذا الكتاب نقل فيه كل التواريخ التي كان يسجلها في دفاتره. وقد اعتمدنا على الكتاب في كل ما أوردناه من تواريخ. وفي تحويل التواريخ الهجرية إلى ميلادية.

(٣) رحمهما الله ومن الصعب الآن محاولة ذلك مع آخرين.

وكان الابن الأكبر في الأسرة (محمد) هو الشخصية البارزة، فهو الذي يتولى زراعة الأرض واستصلاحها. وقد أراد أن يساعده أخوه (أحمد) في عمله الزراعي. ولكن أمه كانت قد رأت في منامها وهي حامل به أنها ستلد طفلاً وعليها أن تسميه أحمد وتحفظه القرآن، فأصرت على أن يذهب إلى الكتاب وأيد أبوه — وكان رجلاً صالحاً — هذا الاتجاه وذهب به في سن الرابعة إلى الكتاب. وقبل شيخ الكتاب — أو كما يطلقون عليه في قرى مصر (سيّدنا) — الطفل رغم أن سنّه كانت أقلّ ممّن يذهب إلى الكتاب عادة، ويذكر الشقيق الأستاذ عبد الرحمن أن اسمه كان الشيخ محمد أبو رفاعي " وكان كفيفاً نقيّاً يفيض وجهه إشراقاً وبشراً " حفظ القرآن على يديه وتعلم أحكام التجويد.

ونمت بسرعة مدارك الصبي، ومع تقدمه في الدراسة كانت فكرة العمل الذي يمكن أن يحترفه دون أن ينقطع عن العلم والمذاكرة تشغله. بعد أن استبعد طبعاً العمل في الزراعة الذي لا يترك له وقتاً أو جهداً — وفكر أن يجعل من هوايته صناعة، وكانت تلك الهواية هي تصليح الساعات — وهي هواية غريبة في هذه القرية الصغيرة، كان قد ذهب في إحدى المرات إلى قرية "مطوبس" ليصلح ساعة عند صانع كان يحضر مطوبس يوم السوق — يوم الخميس.. تطورت إلى صداقة أدت به لأن يذهب إلى رشيد ليتلقى أصول الصنعة على صانع محترف في دكانه. ولكن مهارة الصانع لم ترضه، وفي إحدى المرات كان يصلي بالمسجد والتقى بعد الصلاة بإمام المسجد الشيخ أحمد الجارم وكان رجلاً ذا مروءة، فأخبره بقصته وأنه يريد أن يجمع بين العلم والعمل، وأنه لم يجد طلبه لدى صانع رشيد، فطيب الشيخ خاطره وأرشده إلى محل كبير للساعات في الإسكندرية يملكه الحاج محمد سلطان وأعطاه توصية له، كما عرفه أن بالإسكندرية جامع الشيخ إبراهيم باشا، وهو في الإسكندرية كالأزهر في القاهرة، وبهذا يمكنه مواصلة علومه واستكمال حرفته.

وعاد الفتى إلى شمشيره، وقد عقد العزم على السفر إلى الإسكندرية وعارض ذلك أخوه الأكبر، ولكن أباه قبل وتحمست أمه، وكانت من أسرة علم ودين وكان أبوها صالحاً نقيّاً، وأخوها فقيهاً يحفظ القرآن ويظفر بتقدير واحترام أهل قريته "سنديون" وهيأت له أمه "الزّوادة" التي تكفيه حتى ينظّم أمره..

وهكذا ذهب الفتى إلى الإسكندرية فقابل الحاج محمد سلطان وأبلغه تحيات الشيخ الجارم وتوصيته، فأكرمه وأفسح له مجال إحكام الصنعة، ثم ذهب إلى جامع الشيخ إبراهيم باشا وانتظم بين طلابه حتى أتم الدراسة به.

وبعد بضع سنوات عاد الفتى إلى شمشيرة شيخاً شاباً، وخطب الجمعة في مسجد شمشيرة وقرت به عين أمه وأخذ يمارس تصليح الساعات في شمشيرة ومطوبس وذكر له أحد إخوانه اسم "المحمودية" وأنها أولى باهتمامه، فزارها وسرّب بها وقرّر أن يركّز العمل فيها..

وكان عليه أن يتم أمرين: الأول أن يؤدي امتحان القرعة، ليخلص من شبح التجنيد، وفيما بعد كتب الشيخ في أحد دفاتره " في أول ديسمبر سنة ١٩٠٢ الموافق ٢٩ شعبان سنة ١٣٢٠ هـ أديت امتحان القرعة العسكرية في القرآن، وكان سنّي ١٩ سنة. ونجحت نجاحاً باهراً". والأمر الثاني أن يتزوج. وهذا أيضاً ما تم في يوم الأحد ٨ صفر سنة ١٣٢٢ الموافق ٢٥ أبريل سنة ١٩٠٤.

وكانت "عروسة" الشيخ فتاة في الخامسة عشر من عمرها، وهي الابنة الصغرى لإبراهيم صقر تاجر مواشي القرية، ويمكن أن يعد أكثر ثراءً — شيئاً ما — من أسرة الشيخ. وكانت فتاته على جانب من الجمال، بيضاء البشرة — متناسبة الملامح و "التقاطيع" دقيقة الأطراف: اليدين والقدمين، أسنانها مفلجة، وحواجبها

مفروقة. وقد تصور بعض أتراب هذه الريفية الجميلة الصغيرة التي لم تكدح — كالفلاحات في الحقل، وكانت تحمل اسمًا " رومانتيكيا " واعدًا "أم السعد" أنها تستحق عريسًا أفضل من "المجاور" الذي لم يكن يفخر بطول أو عرض، مال أو أرض. ولكن الله تعالى كان يدخر لها ما يفضل هذا، وما يجعل لها من اسمها نصيبًا، وليحفظ ذكرها في الحافظين..

وكانت أم السعد على صغرها، ذكية مدبرة، واعية، كما كانت على جانب كبير من العناد، فإذا انتهت إلى قرار، فمن الصعب أن تتنازل عنه، وهي صفة ورثتها، كما ورث ملامح الوجه، ابنها البكر — الإمام الشهيد — ولكن العناد عنده تحول إلى صورة سوية أصبح معها " قوة إرادة". وعندما تزوجها الشيخ جعلها تصلي، مع كل فرض فرضًا أهملت في أدائه لمدة سنة أو أكثر — أي منذ أن بلغت الحلم.

سنوات المحمودية:

وفي السنة التالية — ١٩٠٣ — انتقل الشيخ بأهله إلى المحمودية التي، أخذت اسمها من اسم السلطان محمود سلطان تركيا عندما شق محمد علي ترعة تبدأ منها، وأطلق عليها ترعة المحمودية وهي الترععة التي تزود الإسكندرية بالماء العذب من النيل وأقيم بجوارها مشروع كبير لمياه الصرف — كان الأهلون يسمونه — المشروع.. وإن حمل اسم محطة طلبات العطف القريبة من المحمودية، والتي يحدث تبادل في الأسماء ما بينهما، ولهذا لم تكن المحمودية قرية، مغمورة، كانت "بندراً" نشطاً وهي تواجه شمشيرة على الضفة الثانية للنيل. ولا يكون على من يريد أن يذهب إليها من شمشيرة إلا ركوب "المعدية". والنيل هناك واسع، عريض، كأنه البحر.. لأنه على مقربة من المصب في رشيد..

وفي هذه الأيام لم تكن المركزية الحضرية قد وصلت إلى الدرجة التي وصلت إليها أيامنا (١٩٩٠) وكان للبنادر شأن وحياء اجتماعية نشطة، نشأت من ملازمة الطبقة الوسطى من صغار الملاك أو التجار لها. كما لم تكن الخصائص التي تميز المدينة وتجعلها قوة جذب بالدرجة التي أصبحت بها الآن. وقد تحدث العقاد عن قنا في شبابه باعتبارها مركزاً للآداب يلي القاهرة، وكانت الفرق المسرحية والغنائية تحيي بعض حفلاتها في العطف أو المحمودية. كما نجد اسم عبد الحميد العتال رئيس نقابة العطف من القيادات البارزة في الحركة العمالية في العشرينات.

كانت السنوات الأولى في المحمودية رضية سخية. كان الشيخ "عريساً" شاباً، وكانت المحمودية نافذة مفتوحة إذا قيست بشمشيرة. وكان هو وعروسه في ريعان الشباب، فوطن نفسه على الاستقرار بها واشترى بيتاً صغيراً أوى إليه هو وزوجته، كما اشترى " مكاناً " على النيل مباشرة لتصليح وبيع الساعات، ثم توسع مع ظهور "الجراموفون" والصورة الأولى للاسطوانات وكانت وقتئذ أشبه بالاسطوانة أو كوب الماء" ومن هذا الشكل أخذت اسمها "فأدخلها في تجارته، ولم يكن هذا مستتكرًا لأن معظم ما كانت تنطق به هذه الاسطوانات كان تواسيح ومدائح. وكان معظم الملحنين من المشايخ.

على أن هذه اللفتة تكشف عن ناحية خافية في شخصية الشيخ هي وجود الحاسة الفنية، وكانت هذه الحاسة مغروسة في الشيخ ومعظم أبنائه وقد كان الشقيقان عبد الرحمن وعبد الباسط شاعرين، مع ميل خاص للموسيقى وكان لدى الأول حيناً ما " ربابة " وهي الصورة الساذجة للكمان، كما كان لدى الثاني " عودًا ". وألف الأستاذ عبد الرحمن مسرحيات إسلامية يمكن أن تجعله رائدًا للمسرح الإسلامي، كما ألف الأستاذ عبد الباسط بعض الأغاني وكان الشقيق محمد. وهو طالب في الأزهر، يتغنى بين زملائه ببعض أغاني عبد

الوهاب الأولى، وضمت مكتبة الشيخ مجموعات من مجلة "اللطائف المصورة" كما كان يجمع الروايات المسلسلة التي كانت تنشرها الأهرام أسفل إحدى صفحاتها وكانت هذه الروايات من تأليف شارلس جارفيس، وآخرين، وكانت غرامية أو بوليسية. وقد قطع الشيخ القصاصات التي كانت تنشر فيها يومًا من يوم، وجدّها، بل أغرب من هذا كان لديه مجموعة كاملة من مجلة "الأمل" التي كانت تصدرها منيرة ثابت، وهي أول سيدة أصدرت صحفًا، وكانت مجموعات اللطائف المصورة والأمل هما أول ما وقع عليه بصري في مكتب الوالد عندما كان يصطحبني إليه.. وأنا في الخامسة أو السادسة، وكان تصفح صفحاتها والنظر في صورها هو هوايتي، وفي فترة لاحقة كانت هي أول مطالعاتي، ولا أزال أذكر بعض الروايات المسلسلة التي كانت تنشرها هذه الصحف، وقد كانت وفدية متعصبة إذ كانت تلك أيام سعد زغلول، فكان في اللطائف المصورة رواية بعنوان " زغاليل مصر " وأخرى بوليسية " الشيخ " وكانت "الأمل" تنشر رواية مسلسلة بعنوان " قمر بني إسرائيل " عن تاريخ مصر فترة ظهور موسى". وبالطبع فإن الشيخ رحمه الله قرأ هذا كله في شبابه وكان له أثر في تخليص أسلوبه عندما كتب شرح المسند "بلوغ الأمانى" من الركافة والتكلف التي كانت سمة كتابات الفقهاء وقتئذٍ وجعله أسلوبًا سهلًا سائغًا، وهذا ما نجده أيضًا في أسلوب الإمام الشهيد رحمه الله فإنه من السهل الممتع. ولم يكن تصليح الساعات أو بيع الاسطوانات ليمنع الشيخ من مواصلة هوايته العظمى— الاطلاع، والمذاكرة وتحصيل العلوم الإسلامية وكان من حسن حظه أن التقى وقتئذٍ بالشيخ محمد زهران.

والشيخ محمد زهران كالشيخ البنّا نفسه، أحد الأمثلة البارزة على علو الهمة، وقوة الإرادة، فقد كان كفيًا، ولكن ذلك لم يقعه بجانب نشاطه العملي والعلمي اليومي، من أن يصدر مجلة باسم "الإسعاد" كانت تصدر على غرار مجلة المنار المشهورة. وكان يقوم بإدارتها وتحرير معظم مادتها.

ونشأت علاقة وثيقة بين الشاب القادم من شمشيرة، وبين عالم المحمودية وفقهها، بدأت أولاً بتلمذة ثم انتهت إلى صداقة حميمة وأخوة كريمة، فكان الوالد رحمه الله يقرأ للشيخ زهران، ويكتب ما يمليه عليه، ويدور بينهما خلال ذلك حوار مثمر وحديث مفيد.

وبعد فترة قصيرة أصدر الشيخ الوالد أول مطبوعاته وهو " شرح وظيفة سيدي أحمد زروق والمسمى بالفوائد اللطيفة، في شرح ألفاظ الوظيفة تأليف العالم العلامة، العارف بربه سيدي أحمد الشجاعي رضي الله عنهما " وطبع " على نفقته ملتزمة الفقير إليه تعالى أحمد عبد الرحمن الساعاتي " في مطبعة النجاح لصاحبها إبراهيم خليل بدمنهور. وكان دور الشيخ هو تحقيق النص المنسوخ — وليس المطبوع — وكانت النسخة المخطوطة فيها شيء من التحريف فعرضها — كما قال " على أستاذي الهمام وشيخي الفاضل المقدم — العالم المحقق والبحاثة المدقق. محيي السنّة ومعبيدها — ومميت البدعة ومبيدها، خادم السنّة والقرآن الأستاذ الشيخ محمد زهران فساعدني على تصحيحه.. "وقع الشيخ على المقدمة " أحمد عبد الرحمن الساعاتي، طالب علم ومقيم بالعطف".

والشيء الذي لفت نظرنا، وقد عملنا في صناعة الطباعة ردحًا من الدهر أن هذا الكتاب الذي طبع سنة ١٣٣٠ (أي ١٩١٣) في إحدى مطابع دمنهور كان مُتقنًا للغاية. فليس هناك " كبسة " كما يقولون للحروف، أو تباين في توزيع الحبر ما بين الصفحات. أو عدم التطابق ما بين " الجدّول " التي كانت تطوق كل صفحة. وهذا أمر قلّمًا يتوفر إلا للمطابع الكبيرة.

وصدر "شرح الوظيفة" في ١٠٠ صفحة ١٤ × ٢١ سم وكان ثمنه خمسة وعشرين مليمًا خالصًا أجر البريد..

ولم يكن شرح الوظيفة إلا " بروفة " صغيرة ومتواضعة للعمل الذي سيأخذ الشيخ نفسه به بعد ذلك.

وجاء الأبناء..

بمرور الزمن جاء الأبناء، متواترين.. كل عامين تقريبًا ابن أو بنت وكان الابن البكر هو الإمام الشهيد رحمه الله. وتلاه البقية وكان الشيخ يكتب في دفاتره تواريخ الولادة أبناءً ابناً.. وكانت بنص ما كتبه:

(١) في ٢٥ شعبان (١٣٢٤) ولد نجلي حسن يوم الأحد ضحىً موافق ١٤ أكتوبر (١٩٠٦).

(٢) في ٢ رمضان (١٣٢٦) ولد نجلي عبد الرحمن موافق ٢٨ سبتمبر ١٩٠٨ يوم الأحد.

(٣) في ٣ فبراير (١٩١١) ولدت فاطمة^(٤) بنتي يوافق شهر صفر ١٣٢٩.

(٤) في ٢ ربيع الأول (١٣٣١) يوافق ١٠ فبراير ١٩١٣ ولد محمد ابني^(٥).

(٥) في ١٦ أغسطس ١٩١٥ يوافق ١٦ شوال ١٣٣٤ ولد عبد الباسط نجلي^(٦).

(٦) في ١٤ ربيع الثاني ١٣٣٧ يوافق ١٦ يناير سنة ١٩١٩ ولدت لنا بنت أسميناها زينب.

— في يوم الأربعاء ٢ ربيع الثاني ١٣٣٨ موافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٩١٩ توفيت زينب ابنتي.

(٧) ولد لنا أحمد جمال الدين يوم ٥ ربيع الثاني ١٣٣٩ موافق ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٠.

(٨) في يوم السبت ٢٢ رجب ١٣٤١ موافق ١٠ مارس سنة ١٩٢٣ ولدت لنا بنت أسميناها فوزية^(٧).

(٩) وكل هؤلاء الأولاد والبنات ولدوا في المحمودية، وفي بيت واحد، بل وفي غرفة واحدة كان يطلق عليها "غرفة الدكة" وإن أطلق عليها الشقيق عبد الباسط رحمه الله "مسقط الرعوس العظيمة".

(١٠) وهكذا على مدار عشرين عامًا، أصبح الشيخ والدًا لقبيلة صغيرة من الأبناء والبنات، ولكنهم لم يكونوا عبئًا ثقيلًا، فمن بين هؤلاء السبعة كان الاثنان الأخيران في أولى مراحل الطفولة عندما قرر الشيخ ترك المحمودية، وكان الاثنان الأولان قد شقًا طريقهما في دراسات ميسرة على ما سيلي بينما كان الاثنان الوسيطان في المدارس والكتاتيب يتلقيان علومهما الأولية. وكان الشيخ وقد بلغ الأربعين في قمة الرجولة، وقد اتسع عمله، كما أضيف إليه أعمال أخرى.

(٤) حرم الأستاذ عبد الحكيم عابدين — رحمهما الله.

(٥) توفي خلال طبع هذا الكتاب (مارس ١٩٩٠ — شعبان ١٤١٠) رحمه الله.

(٦) كان ضابطًا بالبوليس ورافق الإمام الشهيد حتى قبيل أيام من الحادث، واستقال من خدمة البوليس وعمل بالسعودية وتوفى بها، ودفن في البقيع بناء على وصيته، رحمه الله.

(٧) حرم الأستاذ عبد الكريم منصور المحامي، الذي كان مع الإمام الشهيد رحمه الله ليلة الاستشهاد، وأصابه رشاش من رصاصات القنلة، وتوفي سنة ١٩٨٩ رحمه الله.

الشيخ البنّا إماماً ومأذوناً بالمحمودية:

كان الشيخ قد عقد — منذ أن انتقل إلى المحمودية — صداقات عديدة مع رجالاتها وفضلائها وتجارها أمثال " علي بك العشري عمدتها إذ ذاك والشيخ أحمد ربيع ومحمد بك القمعي من كبار التجار والأعيان، والشيخ عبد الرحمن موافي من أعيان التجار ومن المتفهمين في الدين. وكان الشيخ عبد الرحمن مغرماً بتفسير القرآن فهو يلتقي بالشيخ أحمد فيتناقشان في التفسير ومسائل العلم، ويشترك معهما من عساه أن يكون موجوداً، وأعانهما على ذلك أن الشيخ أحمد كان قد اقتنى مكتبة نفيسة جمعت كثيراً من الكتب القيمة التي يحتاج إليها العلماء والباحثون من مختلف العلوم والفنون، وتوثقت العلاقة بينهما، واشتدت فصارا لا يفترقان، وتصادق كذلك مع الشيخ محمد زهران من كبار رجال العلم وفقهائه، وفي يوم استصحب الشيخ عبد الرحمن معه رجلاً وقوراً من كبار الموظفين المتقاعدين ومن ذوي الأملاك اسمه أحمد أفندي الصّفتي، له نظارة على مسجد، فطلب إليه أن يكون إمامه وخطيبه، فرفض الشيخ أحمد هذا العرض، إذ أن للمسجد إمامه، وما ينبغي — وليس من خلق الرجال — أن يزاحمه ما دام يؤدي واجبه كاملاً، ولكن الرجل ألح حرصاً على إفادة الناس من علمه فقبل، غير أنه اشترط أن يعمل متطوعاً لله وللعلم، وأن يبقى الإمام حيث هو بمرتبته، وأن يستشار أيضاً، فيتحقق بذلك الغرضان واتفقا على ذلك ورحبَّ إمام المسجد بالفكرة، وسرَّ لها.

وفي سنة ١٣٣٢ أُلح عليه عمدة البلدة وأهلها وأولوا الرأي فيها أن يكون مأذوناً ثانياً للمحمودية، فما وسعه إلا القبول^(٨).

وكانت وظيفة المأذون تقف ما بين الترشيح والتعيين، إذ كان يجب القيام بإجراءات عديدة من قبل أعيان البلد ووجهائها لترشيح من يرون. وكان يجب أن يتقدم بعضهم بضمان المرشح لمدة معينة، ويصدق على هذه الضمانة العمدة وأعيان الناحية ويعتمدها المعاون أو مأمور القسم.

وفيما يلي صورة للضمانة التي وجدت بين أوراق الشيخ "نقلاً عن منشور الداخلية":

أنا الموقع أدناه فلان القاطن بجهة كذا أقر وأعترف بأني قد ضمننت للحكومة المصرية فلاناً بوظيفة مأذون بناحية كذا في مبلغ ٥٠ جنيهاً ضمان غروم وإلزام بوجه التضامن والتكافل، عن المدة من أبريل سنة ١٩٢١ لغاية مارس سنة ١٩٢٤، في تعاطيه أشغال وظيفته المذكورة، أو ما يماثلها بأي مصلحة من مصالح الحكومة، ولو كان بطريق النقل أو الانتداب. وذلك في قبض أموال الحكومة بسائر أنواعها، واستلام وحفظ الودائع والأشياء والأوراق ذات القيمة وغير ذلك، بما يعهد به إليه سواء "انكان" مقيداً بالدفاتر أو غير مقيداً. وأقر أيضاً بأني مسئول عن أي إهمال، أو عمل يتسبب منه ويترتب عليه خسائر، أو ضرر على الحكومة بدون أبداء أي عذر، أو الإحالة على مضموني بوجه ما. كما وأني أعتترف بهذه الضمانة صادرة مني برضاي واختياري بدون إجبار ولا إكراه، وضماناً لذلك قد أمنت الأطيان الآتي بيانها تفصيلاً وأعطيت هذه الضمانة مني وهي نافذة عليّ. وأقر أن هذه الأطيان هي ملكي وهي خالية من الرهن ومن الإيقاف، وكافة الحقوق العينية، وأتعهد أن لا أتصرف في شيء منها سواء " أنكانت" بعقود مسجلة أو غير مسجلة، إلا بعد انتهاء مدة الضمان وثبوت خلو طرف مضموني في أثنائها.

(٨) كتاب روح وريحان للأستاذ أحمد أنس الحجّاجي ص ١١١.

الأحواض

مقدر الأَطِيان المؤمنة

قيمة الأَطِيان

س. ق. ف

ش. ق. ف

النواحي التي بها الأَطِيان

يكتب عند الأَطِيان "انكانت" غير مشتركة "وانكانت" مشتركة بالميراث أو غيره فيوقع عليها الشريك أو الورثة.

إقرار العُدة والمشايخ والصراف:

نحن عمدة ومشايخ وصراف ناحية كذا "نُقرُّوا" إقراراً صريحاً بأن الضامن كفؤ بالضمانة. وأن الأَطِيان الموضحة للضمانة ملكاً له بطريق الميراث الشرعي، أو خلافه ولا منازع له ولا شريك وهي ليست أطيان جزائر وخالية من كافة الموانع التي تحول دون تأمينها وليس موقعاً عليها أي حق من الحقوق العينية، وإن توقيع الضامن هو المتعامل به في جميع أشغاله، وتعهدهنا بتبليغ المديرية في الحال عما يحتمل حصوله بهذه الأَطِيان من التصرفات.

صراف الناحية

شيخ الناحية

عمدة الناحية

قد اطلعت على إقرار العدة والمشايخ والصراف الموقعين أعلاه وتأكدت من صحة توقيعاتهم وأنها بذاتها المستعملة في الأشغال الرسمية فتعتمد تحت مسؤوليتهم.

المعاون أو مأمور المركز

واتخذت هذه الإجراءات كلها وقدمت وفي ٢٧ شعبان سنة ١٣٣٢ الموافق ٢١ يوليو سنة ١٩١٣ جاء خطاب قاضي محكمة رشيد الشرعية^(٩).

"إلى الشيخ أحمد عبد الرحمن الساعاتي مأذون ناحية كفر "مليط" بمركز رشيد.

بناء على انتخابك مأذوناً لناحية كفر "مليط" بمركز رشيد. وبناء على أوامر نظارة الحقانية الصادرة في شهر يوليو سنة ١٣ بشأن تعيين المأذون، وبعد اختيارك، قد عيناك مأذوناً للجهة المذكورة. فيقتضي أن تباشر الأعمال التي تطلبها الحكومة بكل همة ونشاط."

٢١ يوليو سنة ١٣

قاضي محكمة رشيد

كما أرسل إلى الشيخ في التاريخ نفسه خطاباً آخر.

(٩) كانت المحمودية وقتئذ تتبع رشيد، ولكن النظم الإدارية فيما بعد جعلتها تتبع دمنهور.

"يقضي قانون الانتخاب الجديد بتشكيل لجان في المدن والقرى لتحرير جداول كشوف الانتخاب. وقد قررت الداخلية في منشورها الذي ستصدره للمديريات، بوجوب البدء حالاً بتشكيل تلك اللجان. ولما كان مأذون كل مدينة أو قرية معيناً بنص القانون عضواً في لجناتها، فيجب عليكم متى دعيتم أن تباشروا مأموريتكم هذه في لجنة الانتخاب، وأن تتفرغوا للعمل فيها، وتواظبوا على الوجود مع بقية الأعضاء في جميع أوقات العمل. ولو دعت الحالة لاستمراره حتى يتم إنشاء الجدول والكشوف المذكورة في الميقات المحدد لذلك في القانون وهو خمسة عشر يوماً من تاريخ صدوره، وحاذروا من التأخير مهما كان عندكم من الأعذار.

تحريراً في يوم الاثنين ٢١ يوليو سنة ١٣ - ٢٧ شعبان سنة " ١٣٣٢".

وكتب الشيخ في دفتره العتيق "في ٢٧ شعبان ١٣٣٢ موافق ٢١ يوليو سنة ١٩١٣ عينت مأذوناً شرعياً بالمحمودية".

والحقيقة أن مأذون البلدة كان بحكم الأمر الواقع والمناخ العام. شيخ البلدة، وإمام مسجدتها، ومفتيها، ومستودع أسرار أبنائها، وهي صفات قلما توفرت للمأذونين في المدينة.

* * *

يبدو أن المأذونية، وتصليح وبيع الساعات لم يكفيا لسد حاجة الشيخ بعد قدوم الأبناء وزيادة الأعباء، وزين له البعض أن يفتتح محل بقالة، وشجعه على ذلك بتيسير بعض ما يلزم. ولكن التجربة كانت فاشلة وخسر الشيخ معظم ما أنفقه، فهذا العمل يتطلب التفرغ، كما لا يكون فيه مناص من قبول البيع بالأجل، والإلحاف في الطلب. ولم يكن لدى الشيخ استعداد للتفرغ، أو الإلحاف في طلب تسديد المدينين، أما الأبناء فبدلاً من أن يساعدوا، فقد عاثوا فساداً لعدم خبرتهم، وأغلق المحل. وكان المستفيد الأكبر منه هو الشقيق الأستاذ محمد رحمه الله، الذي كان يُحمل إلى الدكان في طفولته الأولى، ليأكل من الحلاوة الطحينية التي يحبها ما يشاء! وقع الشيخ من الغنيمة بالإياب. وعندما فكر مرة أخرى في عمل إضافي اختار عملاً لا يعطله، ويمكنه القيام به في ساعات فراغه - وهو تجليد الكتب - وكانت الوالدة رحمها الله تساعده فيه. وكان يمارسه في البيت. وظلت بعض بقايا " عده " هذه الحرفة مخترنة في البيت القديم لسنوات عديدة.

وقد تعدنا الإشارة إلى هذا الجانب من جوانب حياة الشيخ لأنه يمثل قضية هامة في حياة طالب العلم، فهو إما أن يقبل الطريق " المؤسساتي " المقرر، فيلتحق بكلية أزهريّة، ليتعين بعد ذلك في إحدى الوظائف التي تربطه بالنظم المقررة، وتخضعه لضرورتها بحيث لا يستطيع الاستقلال عنها أو التحرر منها، فإذا أراد الاحتفاظ باستقلاله، فلا بد أن يمارس عملاً حراً كأن يكون محامياً أو طبيباً ويغلب أن تستحوذ عليه المهنة، فلا تدع له وقتاً أو اهتماماً، أو تجعل اهتمامه العلمي على هامش عمله المهني، فليس في هذه كلها ما كان يحقق للشيخ غايته. وكان لا بد أن يسلك ما سلكه بالفعل، وإن لم تسغه العقول " البرجوازية " التقليدية وكان الشيخ أهدى سبيلاً، وأخذ بما كان يأخذ به أئمة السلف من الاحتراف بحرفة ما تحقق له الكفاف من العيش، ولكنها تتيح له الحرية والوقت، وهما جوهر وأداة رسالته..

* * *

كانت إقامة الشيخ في المحمودية رضيّة، وقد تكيف معها واطمئن إليها وكون عددًا من الصداقات الوثيقة التي ظلت قائمة حتى مات أصحابها. وحفظ هؤلاء الأصدقاء الود للشيخ. وحفظ الشيخ ودهم. وعندما انتقل الشيخ إلى القاهرة اتصلت الخطابات بينهم، وبوجه خاص الشيخ أحمد الطباخ الذي كان بمثابة وكيله في المحمودية. والشيخ محمود دويده وعوض الباسوسي وغيرهم، قد احتفظ الشيخ بهذه الخطابات. ولفت انتباهنا أن الشيخ كتب على " ظرف " أحدها (وكان يحتفظ بالخطابات داخل ظرفها) " تذكّار — رحم الله صاحبه " وصاحبه هو عوض الباسوسي. وجاء فيه:

أستاذي الفاضل

أفكر ليل نهار، فيما صنع الدهر معنا، ففرق بين جسمانيّنا، ولم يفرق بين روحينا، وأنتهي من التفكير حزينا منقبض الصدر لعدم التمكن من إشفاء الغليل بروية الحبيب الأتور، أمنيتي في الحياة أن أراكم وأعاشركم كما كنا في غابر الزمن المنير، فنعم هو من زمن، وأن لي فيه السعادة بأسرها وخضعت لي فيه هامة البهجة والسرور. فاللهم رضاء بحسمك العدل وخضوعًا وتصديقًا لقولك الحق "وتلك الأيام نداولها بين الناس" فلا أجد مسلميًا إلا قولك الحكيم، وقول رسولك العظيم وقول الشاعر الحكيم:

وقد يجمعُ اللهُ الشّيتينِ بعدمَا يظنانِ كلَّ الظنِّ أنْ لا تلاقيا

وعوض الباسوسي الذي أرسل هذا الخطاب بقّال بحكم المهنة، ولكنه بفضل مصاحبته للشيخ، وإمامه بالثقافة الإسلامية، استطاع أن يدبج هذا الخطاب ليبيت فيه لواعج شوقه ونفثات قلبه..

ولم تقتصر صداقات الشيخ على أهل المحمودية. إنها امتدت إلى النواحي المجاورة حتى الإسكندرية والقاهرة، وقد كان بعض هؤلاء من كبار الكتاب الإسلاميين، مثل الأستاذ محمد فريد وجدي، الذي يعز وجود مثيله في خلقه النبيل وعلمه الغزير وثقافته الشاملة. وانكابه على التأليف. ويبدو أنه وكلّ الشيخ في إحدى عملياته المالية. ووجدنا بين أوراق الشيخ خطابًا بخطه (أي خط الأستاذ فريد وجدي رحمه الله) يرد فيه على وشاية أحد الأشخاص بالشيخ جاء فيه:

حضرة الأستاذ المبجل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد فقد حظيت بكتابتكم الكريم، وأعجبت بوفائكم وذكركم لهذا المبلغ التافه طول هذه المدة، وإنني ما ذكرتها قط، وما عوّلت على مطالبكم بها فهي جنب فضلكم لا تعد شيئاً.

ويستطرد..

فتقوا يا حضرة الأستاذ أنني تجاوزت عن هذا المبلغ عن طيب قلب ولا أحب أن تزعجوا أنفسكم بالفكر فيه. وقديماً حصل مثل ذلك بين أهل الفضل، فهم إخوان حيث كانوا وأنّى وجدوا..

سنرسل لكم أجزاء من مطبوعاتنا هدية لكم

وتفضلوا بقبول احترامي

محمد فريد وجدي

معركة "الفتح":

أشرنا إشارة عابرة إلى العلاقة التي نشأت ما بين الشيخ الوالد، والشيخ محمد زهران، ومع مرور الأيام توثقت هذه العلاقة. وفي الوقت نفسه كان الشيخ قد كون مكتبته الخاصة، واطلع على كثير من المراجع في التفسير والحديث، وكان أبرزها مُسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني الذي كان مطبوعاً في ستة مجلدات كبيرة.

وقف الشيخ أمام المسند، كما يقف المستكشف أمام قارة عذراء مترامية الأطراف، ووصف هو نفسه تلك اللحظات، عندما اطلع فيها على المسند سنة أربعين وثلاثمائة وألف. وهي نهاية الحلقة الرابعة من عمره وكيف أنه وجده "بحراً خضماً يزخر بالعلم ويموج بالفوائد بيد أنه لا فُرْضَةٌ^(١٠) له ولا سبيل إلى اصطيد فرائده^(١١) واقتناص شوارده فخطر بالخطر وناجتني نفسي أن أرتب هذا الكتاب. وأعقل شوارده أحاديثه بالكتب والأبواب، وأقيد كل حديث منه بما يليق به من باب وكتاب، وأقرنه بقرينه وأنيسه، وأجلس كل جليس مع جليسه، فاستصغرت نفسي هنالك، واستعجزتها عن ذلك، ولم يزل الباعث يقوى، والهمة تتازعني والرغبة تتوافر، وأنا أعللها بما في ذلك من التعرض للملام، والانتصاب للقدح والأمن من ذلك جمعية مع الترك، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، فتحققت بمعونة الله تعالى العزيمة، وصدقت النية، وخلصت بتوفيقه الطوية في العمل "وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب" فاخترت له وضعا يزيد بيانه حسبما أدى إليه اجتهادي وانتهى إليه عرفاني هذا بعد أن أخذت فيه رأي أولى المعارف والنهي. وأرباب الفضل والحجى، وذوي البصائر الثاقبة والآراء الصائبة واستشرت من لا أتهمه^(١٢) ديناً وأمانةً وصدقاً ونصيحة، وعرضت عليه الوضع الذي عرض لي، واستأمنت به في هذا الصنع الذي رسخ عندي، فكلُّ أشار بما قوَّى العزيمة، وحقق إخراج ما في النية إلى الفعل في هذه الدرة اليتيمة؛ فاستخرت الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه ويقبله ويعين على نجزه بصدق النية فيه، ويسهله، وهو المجازي على مودعات السرائر، وخفيات الضمائر، هذا مع كثرة العوائق الدنيوية، وازدحام العوارض الضرورية، وضيق الوقت عن فراغ البال، لمثل هذا المهم والغرض الشريف النادر المثال.

وأنا أسأل كل من وقف عليه ورأى فيه خللاً أو لمح فيه زللاً أن يصلحه حائزاً به جزيل الأجر وجميل الشكر. فإن المهذب قليل والكامل عزيز عديم، وأنا معترف بالقصور والتقصير مقر بالتخلف الكبير .. الخ..

وأعتقد أن الشيخ رحمه الله — رغم كل ما ذكره — لم يعرض كافة أبعاد هذه المهمة، مهمة ترتيب المسند، لأن انغماسه في الفكرة حال دون أن يرى هذه الأبعاد طبقاً لما يقال من أن العين لا ترى نفسها، ولعلنا، ونحن خارج الحلبة، وبعد انتهاء المعركة — أقدر على تقييم الوضع. فهنا — في المحمودية — وهي بندر يتبع مركزاً، والمركز يتبع مديرية، والمديرية بعيدة عن القاهرة حيث الفقهاء والأئمة. والشيوخ والسلطة. رجل محدود الموارد، مغمور الذكر، ليس له إيراد خاص، وهاهو يعيش على ما يبسره الله له من

(١٠) فُرْضَةٌ (بضم الفاء) محط السفن من البحر (أي الميناء).

(١١) أي جواهرها النفيسة كاللؤلؤ والمرجان ونحوهما.

(١٢) أشير بذلك إلى أخي في الله، وصديقي، وشيخي الأول العالم العامل الصالح الورع الأستاذ الشيخ محمد زهران أسكنني الله وإياه فسيح الجنان.

رزق يوماً فيوماً، وعليه إعانة أسرة كبيرة. إن رجلاً في هذه الأوضاع لهو آخر واحد يمكنه أن يتصدى لعمل يستغرق عشرات السنين، ويتطلب التفرغ والتركيز، وقد عجز عن أن يقوم به أئمة الأمة منذ أن وضع الإمام أحمد مُسنده في القرن الثالث الهجري حتى القرن الثالث عشر، أي طوال عشرة قرون كاملة. وقد حاول الإمام ابن كثير هذه المهمة دون توفيق، وقال كلمة تصور "فدائية" من يتصدى لها " ما زلت أنظر فيه والسراج ينونص حتى كف بصري معه " فكيف يتصور أن يتصدى هذا الرجل القادم من شمشيرة والذي يشتغل بتصليح الساعات لهذا العمل الذي عجز عنه ابن كثير، ولم يتصدى له أحد من الأئمة؟؟

ولكي تكون الصورة كاملة، نقول أن الشيخ لا بد وأن ساوره مصير ما سيقوم به، وما سيأخذ منه عشر سنوات أو أكثر، ماذا سيفعل به؟ إن المؤلف إنما يؤلف ليطلع وينشر ما يؤلفه، وإلا فلا قيمة لما أضع فيه عمره. فكيف يمكن أن يطبع وينشر مثل هذا العمل..؟! أي مطبعة – أو بمعنى أصح أي دار نشر – تقبل كتاباً لا تكون له قيمة تجارية مجزوم بها إلا بعد طبع كل أجزاءه، وقد تكون عشرين جزءاً وأين هي هذه الدار، وكم سيأخذ هذا العمل أيضاً من السنوات.. ومن المال.. ومن عمر الشيخ.

وكان كل هذه المثبطات لم تكن كافية، فقد قرر الشيخ أن يضيف إلى الترتيب والتصنيف، وهي المهمة الأصلية، والتي عجز عنها الأئمة، شرحاً مسهباً لكل حديث. واستخلاص الأحكام الخ.. مما سيرد بيانه، فتضاعف العمل حجماً وازداد صعوبة وفنية، خاصة عملية التخريج المعقدة أو استخلاص الأحكام، وما تجعله يعرض فقهاً جديداً هو " فقه السنة " أي الأحكام المستخلصة من الحديث، وليس من المذاهب. وهو ما تبعه عليه بعد ذلك بصورة مختصرة، الشيخ سيد سابق في كتابه " فقه السنة " .

هذه الأبعاد تصور لنا المهمة التي تصدى لها الشيخ وملابساتها وكانت كلها مُثبّطة، كلها تجعل هذا الرجل آخر رجل يتصور أن يقوم بها، ومع هذا فما قيمة هذه المثبطات كلها أمام الهمة والإرادة والعزيمة؟؟ ما قيمتها أمام توفيق الله واصطفائه عبداً لا يتصور الناس أنهم الأمثل " قالوا يا شعيب لا نفقه كثيراً مما تقول، وإنا لنراك فينا ضعيفاً، ولولا رهطك لرجمناك!!" "لولا نزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم" "أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال".

وإنه ليطيب للنفس أن تقرأ ما كتبه الشيخ عن عمله في المسند، وما لابسه أو تعرض له خلال ذلك.

"اعلم رعاك الله أني ابتدأت العمل في ترتيب المسند سنة أربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة فقرأته للمرة الأولى حتى انتهى تسويده في يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وثلاثمائة وألف، وكنت في أثناء عملي في المسودة أُجمل الأبواب في الكتب. أعني لا أكثر من ذكر الأبواب، لأن غرضي كان إذ ذاك حصر الأحاديث في كتبها ككتاب الوضوء مثلاً، أجعل كل حديث يتعلق بالوضوء في هذا الكتاب مع ذكر أبواب قليلة عازماً على تفصيلها في التبييض، فلما انتهت المسودة وشرعت في التبييض وجدت صعوبة شديدة في تفصيل الأبواب وتراجمها لأنني أريد وضعها بحكمة، وازدادت الصعوبة حينما تذكرت أن في المسند زوائد لعبد الله بن الإمام أحمد، غفلت عن تمييزها من أحاديث المسند أثناء العمل في المسودة، وهي لا تظهر إلا من السند؛ فكل حديث يقال في أول سنده "حدثنا عبد الله" "حدثني أبي" فهو من المسند، وكل حديث يقال في أول سنده "حدثنا عبد الله" "حدثنا فلان" (بغير لفظ أبي) فهو من زوائد عبد الله. وكل حديث يقال في أوله "حدثنا فلان" غير عبد الله وأبيه فهو من زوائد القطيعي . فهذه قاعدة عظيمة ينبغي أن تعرفها، فبقيت بين عاملين، إما أن أسير في العمل مع ترك تمييز الزوائد والتساهل في وضع الأبواب. أو

أترك العمل فيه خوفاً من التساهل، ففضلت الترك، وتركت العمل مدة وجيزة لا تزيد عن شهر، واكتفيت بالمسودة، وقلت تتفني في المراجعة، وفي يوم ما سألتني بعض العلماء عن حديث في المسند لم يُهتدِ إلى مكانه فيه، فراجعت المسودة واستخرجته بسرعة مدهشة، فسر بذلك الرجل سروراً عظيماً وبعد ذهابه اعتراني أسف شديد لعدم إتمام هذا العمل الذي تعبت فيه تسع سنين وكان بيدي الجزء الأخير من المسودة فتصفحته حتى أتيت على آخره كل ذلك وأنا غارق في بحار الأسف والغم الشديد. وبيننا أنا كذلك إذ وقع نظري على آخر حديث في المسودة في باب رؤية الله عز وجل يوم القيامة، فقرأته بإمعان وتأمل وإذا نصه " عن صهيب بن سنان رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ إذا دخل أهل الجنة الجنة، نودوا يا أهل الجنة إن لكم موعداً عند الله لم تروه فقالوا وما هو، ألم تبيض وجوهنا وتزحزحنا عن النار وتدخلنا الجنة، قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم منه " وفي رواية من النظر إليه " ثم تلا رسول الله ﷺ "للذين أحسنوا الحسنى وزيادة" وما كدت أفرغ من قراءته حتى اعترتني غشية، تصحبها لذة أعقبها فرح وسرور لم أر مثله فيما مضى من عمري، أتدري لم ذلك؟ لأن هذا الحديث وقع خاتمة كتابي بطريق الصدفة وإرادة الله عز وجل لا بإرادتي، وجاء هذا الحديث نفسه في الجزء الرابع من المسند وقد بقي من الكتاب أكثر من ثلثه، أعني مجلدين فأكثر وكنت أتوقع وجود أحاديث في رؤية الله تعالى في المجلدين الباقيين، أضعها بعد هذا الحديث في الباب نفسه، ولكن لم أجد بعده حديثاً في الرؤية مطلقاً فبقي هذا الحديث آخر الكتاب بإرادة الله تعالى واختياره، وقد أراد الله جل شأنه أن يختم كتابي بهذا الحديث الصحيح الذي رواه أيضاً مسلم والترمذي والنسائي، بل بآية قرآنية يؤخذ منها أعظم تبشير وأحسن فأل، هذا سبب سروري واغتنابتي، واستثنائي العمل بكل نشاط واجتهاد لا يعرف الملل فابتدأت قراءة المسند للمرة الثانية، لأجل وضع الرموز على زوائد عبد الله، وتمييزها عن المسند، وفي هذه المرة ألهمني الله تعالى وضع رموز أيضاً على زوائد القطيعي، وما وجدته عبد الله بخط أبيه إلى آخر ما أشرت إليه في المقصد السادس، حتى انتهى الكتاب (ثم قرأته للمرة الثالثة في التبييض) وفي هذه المرة أحكمت وضع الأبواب وترتيب الأحاديث بروية وإتقان. وكنت كلما اعتراني ملل أنظر إلى حديث الرؤية فأنشط للعمل، وما زلت كذلك حتى انتهيت من تبييضه في نهاية عام ١٣٥١ هجرية. وإذ ذاك ألهمني الله تعالى عمل التعليق وذكر السند، إلى آخر ما أشرت إليه في مقدمة التعليق، وهذا يستلزم قراءته فتكون المرة الرابعة وسأقرؤه إن شاء الله تعالى للمرة الخامسة عند تصحيحه أثناء الطبع والله الموفق".

وعن كيفية ترتيب الكتاب وتقسيمه إلى سبعة أقسام قال الشيخ:

"أعلم أرشدني الله وإياك إلى ما فيه الخير والصلاح، أن الله تبارك وتعالى اختار لهذا الكاب تقسيماً عجيباً ما كان يخطر لي على بال، وكنت قسمته قبل ذلك مرات متعددة لم تطمئن نفسي لواحدة منها، فسألت الله تعالى أن يختار لي ما فيه الخير؛ فألهمني جل شأنه هذا التقسيم العجيب الذي لا أعلم أحداً سبقني إليه (وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) فأنشرح له صدري واطمأن به قلبي. وذلك أني جعلته سبعة أقسام، ولست أقصد بهذا التقسيم تساوي الأقسام في عدد الأحاديث، أو مقدار الكراريس كلاً، بل باعتبار الفنون وإن كان بعضها أطول من بعض فكل قسم منها يصلح أن يكون مؤلفاً مستقلاً مقدماً الأهم فالمهم مبدئياً بقسم التوحيد وأصول الدين، لأنه أول ما يجب على المكلف معرفته ثم الفقه ثم التفسير ثم الترغيب، ثم الترهيب، ثم التاريخ، ثم القيامة وأحوال الآخرة. مراعيًا في وضع كل قسم عقب الآخر حكمة عظيمة يدركها المتأمل، وكل قسم من هذه الأقسام السبعة يشتمل على جملة كتب، وكل كتاب يندرج تحته جملة أبواب. وبعض

الأبواب يدخل فيه جملة فصول، وفي أكثر تراجم الأبواب ما يدل على مغزى أحاديث الباب تسهيلاً للمراجع، وتقريباً للمراجع، وما وضعت كتاباً أو باباً أو فصلاً عقب الآخر إلا لحكمة تظهر للمتبصر^(١٣).

ولم يتعد الشيخ الواقع فيما قال، فالحق أن الكتاب بتقسيمه، وتبويبه وشرحه، واستخلاصه للأحكام جاء نسيجاً وحدة وجمع ما بين الحديث والفقہ بأسلوب سلس بعيد عن التعقيد. كان "فتحاً ربانياً" كما سماه.

ومنذ أن أمسك بقلمه ليضع أول سطر في "الفتح"، لم يدعه إلا في الأيام الثلاثة الأخيرة في حياته، عندما اشتد عليه المرض، وحتى في هذه الأيام نفسها فإنه عندما نقل إلى بيت الشقيق الأستاذ عبد الرحمن ليكون تحت العناية الطبية أخذ معه بعض المراجع اللازمة لإتمام شرح بقية الجزء الثاني والعشرين الذي كان قد طبع نصفه بالفعل.

وخلال هذه المدة الطويلة تعرض الشيخ لضغوط عديدة، واضطر بعد كتابة شرح الجزء ١٥ و ١٦ إلى استبعاد هذا الشرح الذي كان مطولاً^(١٤)، وكتبه من جديد، مختصراً، وعثرنا بين أوراقه على أربعة "كراريس" كبيرة كتب الشيخ على الأولى منها "هذه الكراريس الضخمة^(١٥) هي من كتاب الفتح الرباني، مع تعليق وجيز عليه بدون ذكر الأسانيد، إلا في مواضع يسيرة كما يُرى بالتتبع، وهذا كان مقصدي الأول، ولكن شرح الله صدري لذكر سند الأحاديث جميعها في الشرح، مع اتساع الشرح أيضاً كما ترى في الفتح الرباني مع شرحه بلوغ الأمانى المطبوع، لذلك عدلت عن القصد الأول، وتركت هذه الكراريس والله الموفق".

* * *

وكمثال على أهمية تصنيف المسند، وقيمة عمل الشيخ فيه نورد هذا المثال: دارت مساجلة على صفحات العدد الثاني من المجلد الحادي والثلاثين من "المنار" في باب المراسلة والمناظرة بين السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار والشيخ أحمد محمد شاکر حول حديث عن عبد الله بن مسعود في الإعلان عن المنافقين وهل هو في المسند أم لا. وذهب صاحب المنار نقلاً عن "فتح البيان" إلى أن الحديث موجود في المسند بينما نفى الشيخ شاکر أن يكون موجوداً في أحاديث عبد الله بن مسعود في المسند. وطرفا المساجلة كما هو معروف من أعلام الإسلام، فالسيد رشيد رضا رحمه الله هو "راوي" الشيخ محمد عبده وصاحب المنار، والتفسير والمؤلفات العديدة. والشيخ شاکر أحد الذين عنوا بتحقيق مسند الإمام أحمد بن حنبل وخدمته خدمة دقيقة، فمن ذا يستطيع أن يتصدى للحكم بينهما؟ كتب الشيخ البنّا رحمه الله في ١٧ صفر ١٣٥٠ إلى السيد رشيد رضا بالفصل في الموضوع، فالحديث في المسند فعلاً، ولكنه ليس من أحاديث عبد الله بن

(١٣) الصفحات من ٢٢ إلى ٢٥ من الجزء الأول من الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني - بتصرف.

(١٤) نحتفظ بهذا الشرح الموسع للأجزاء الثلاثة، ويبدو أنه لا أمل في أن ترى النور، فقد أعيد طبع الفتح "مرتين" كلتاها "بالأوفست" وليس هناك الهمة أو الأستاذية، أو الأحكام، أو القوة أو الجهد لمجرد طبع هذا الشرح الموسع بدلاً من المختصر. وقد عجزت همم الطابعين والناشرين والمشرفين حتى عن تصحيح الأخطاء المطبعية وليس إلا التصوير والتصوير فحسب.

(١٥) لم تكن هذه مثل كراريس التلاميذ، وكلها كانت طويلاً وعرضاً تجاوز "الفلسكاب".

مسعود، ولكن من أحاديث "أبي مسعود". وقدم نصه والصفحة التي جاء بها الحديث في النسخة القديمة للمسند المطبوع بالمطبعة الميمنية سنة ١٣١٣.

وجاء في خطاب الشيخ..

"وعلى هذا فيكون ما نقلتموه عن فتح البيان من عزو الحديث إلى المسند صحيحاً، والصواب إلى جانبكم من هذه الناحية، وإن وقع تحريف فينقل الرواية من أبي مسعود إلى ابن مسعود، ويكون ما نقله فضيلة الشيخ أحمد شاكر عدم وجود الحديث في مسند ابن مسعود صحيحاً أيضاً والصواب إلى جانبه من هذه الناحية، وإن وجد الحديث في مسند أحمد من رواية أبي مسعود الأنصاري".

وإلى جانب هذا التحقيق الذي دق على الشيخين الكبيرين وفصل فيه الشيخ البناء، فإن ما يثير الانتباه للباقة في مناقشة هذه القضية بحيث أن الشيخ رحمه الله جعل كل واحد منهما مصيباً، ولم يُخَطِّأ أحداً منهما، وهذه اللباقة هي مما عرف عن الشيخ رحمه الله. ومما ورثه عنه الإمام الشهيد.

كما عثرنا بين أوراق الشيخ على بطاقة " كارت " من الشيخ يوسف الدجوي وهو من هيئة كبار العلماء، وصاحب مؤلفات عديدة ومن الشخصيات الإسلامية البارزة أرسله إلى الشيخ يقول فيه.
"فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ البناء..

سلاماً واحتراماً، أرجو إرسال الكراس الذي عندكم لناخذ منه بعض الموضوعات، وإن شئتم رددناه إليكم هو أو غيره. وإن كنتم قد نشرتم منه شيئاً، فأرسلوا لنا المجلة ولكم خالص الشكر وعظيم الاحترام".

يوسف الدجوي

والكارت غير مؤرخ. وقد كانت شهرة الشيخ الدجوي ونشاطه في العشرينات والثلاثينيات، فيحتمل أن يكون قد أرسله قبل قيام الشيخ الوالد بالطبع.

بل وجدنا أيضاً خطاباً من الشيخ محمد زهران، وهو الشيخ الأول للوالد — كما ذكرنا يقول فيه:

حضرة الأخ في الله الأستاذ الورع الهمام خادم السنة الشيخ أحمد البناء.

السلام عليكم وعلى حضرة الأستاذ المجاهد نجلكم وسائر الأنجال الكرام ورحمة الله.

أما بعد، فإني في شوق إليكم جميعاً ولي شغف بأن أزور القاهرة للقاءكم وأغراض أخرى. ولكنني منذ نحو عام عراني ضعف قد يمنعي من ذلك، بل ومن مطلق السفر، ولي حاجة ملحة أنزلها بفيحاء مكارمكم وعالي همتمكم ألا وهي مساعدتي على تعرف درجة حديث جابر رضي الله عنه في أولية النور المحمدي، فإني لم أجد بعد طول السبر من ذكره من المحدثين غير عبد الرزاق، إذ لم يوجد إلا في كتابه وليس هو ممن يخلون كتبهم من الضعيف أو الموضوع ولم أره في كلام متقدمي العلماء الذين لهم قدم في الحديث إنما شاع في كلام المتأخرين وإنما يذكر الحفظ حديث (كنت أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً) وحديث (كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد)، هذا إلا أن في حديث جابر إشكالات عدة، حاولت بنفسني وبواسطة كثير سألتهم دفعها فلم تندفع. حتى لجأ بعض من سألت من العلماء إلى دعوى أن الحديث من المتشابه الذي استأثر تعالى بعلمه. لهذا أراني مضطراً إلى معرفة سنده، كي أراجعهم في كتب الجرح والتعديل وما عندي منها سوى "الميزان" للذهبي وخلاصة تهذيب الكمال، وفي مكنتكم أن تراجعوا سنده في غيرهما، أي تتعرفوا حال

رجال سنده إن لم يوجد ذلك في أحدهما، وذلك بعد أن تعرفوا سنده بمراجعة كتاب عبد الرازق في دار الكتب ولو بواسطة من تختارونه لذلك.

وحاجة أخرى هامة أيضاً، ذلك أن السيوطي قال في حديث (ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلتها إلا وقى فتنة القبر) أنه حسنه الترمذي وعبارته في "شرح الصدور بشرح أحوال الموتى والقبور" في آخر صفحة ٥٨ (أخرجه أحمد والترمذي وحسنه وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن عمر) وساق الحديث. ولكني رأيت المنذري في الترغيب والترهيب نقل عن الترمذي أنه قال فيه (غريب ليس إسناده بالمتصل) فراجعت الترمذي فتبينت صحة هذا النقل لفظاً ومعنى، فدهشت ثم جوّزت أن يكون التحسين من ابن أبي الدنيا بناء على زيادة^(١٦) الواو في النسخ أو الطبع فحبذا لو روجعت من (شرح الصدور) نسخة أو أكثر غير المطبوعة بالمطبعة الميمنية. على أنكم لا بد وأن تكونوا بينتم درجة هذا الحديث للترامكم بيان درج أحاديث المسند. والقصد إنما هو معرفة حقيقة درجة الحديثين فهل أنتم ملبوا طلبتي هذه ومحققوا أملي فيكم، لا بد أنكم فاعلون بإنشاء الله . فقد كرستم حياتكم لخدمة السنة فلكم الهناءة والبشرى بتلك المنحة العظمى والعناية الكبرى.

هذا ولابن حجر المكي في فتاويه الفقهية أو اخر باب الجنائز ج ٢ كلام يفيد التوقف في ثبوت حديث موت الجمعة وهو ما أميل إليه لمعنى لا يخفى عليكم إذا تأملتم ولكن لا بد من تحكيم الحُفاظ.

والسلام عليكم ورحمة الله،،

٢٠ ربيع الثاني سنة ١٣٥٨

محمد زهران
بمحمودية البحيرة

فهذه الخطابات والتساؤلات توضح كيف أن الشيخ رحمه الله، عندما قام بهذا العمل العظيم في تصنيف المسند، أصبح المرجع الذي يعود إليه العلماء فيما يشكل عليهم من معضلات الحديث..

على أن تصنيف وترتيب المسند على أهميته ليس هو أعظم أعمال الشيخ. لأن التصنيف قد يخلو من الأبداع وإن تطلب مهارات فائقة وحنكة ودقة، ولكن العمل الذي يمثل عبقرية الشيخ وتتجلى فيه إضافته المبدعة هو شرحه وجهده في استخلاص الأحكام، وأسلوبه السهل البعيد عن التكلف والتعقيد، ونحن نؤمن أن هذا العمل لم ينل حقه من التقدير.

ومع أن الموت حال دون أن يرى الشيخ " الفتح " كاملاً، فإنه قد تذوق الفرحة الكبرى، فرحة إتمام التبويب والتصنيف، وهذا هو المهم، أما الشرح، فقد كان يكتبه في ساعات فراغه قبل الطبع، أو عند الطبع بالفعل " ملزمة ملزمة ". ولذلك لم يحرمه الله تعالى أن يشهد نجاح نهاية مسيرته الطويلة وقد كُلت بالتوفيق. وعمله الضخم وقد تم. وفي مساء يوم الجمعة العاشر من شوال سنة ١٣٥٢ كتب الشيخ الصفحة الأخيرة من ترتيبه:

(١٦) أي في قوله وابن أبي الدنيا.

"يقول أفقر العباد وأحوجهم إلى عفو ربه يوم التتاد أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الشهير بالساعاتي. إلى هنا انتهى الكتاب الموسوم بالفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني غفر الله لي وله وكان الفراغ من تبييضه في مساء يوم الجمعة المبارك العاشر من شهر شوال سنة اثنين وخمسين وثلثمائة وألف من هجرة سيد المرسلين عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم. وذلك بمدينة مصر القاهرة، جعلها الله بالنصر ظافرة والله أسأل أن ينفع به المسلمين، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وذخيرة لي يوم الدين، واغفر اللهم لي ولمن دعا لي بالرحمة والغفران" ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم " كتبه بيده الفانية مؤلف الكتاب أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الشهير بالساعاتي".

يدوم خطى زماناً في الورى وأنا تحت التراب ويبقى وجه بارينا
فأعجب لرسم بقي قد مات راسمه وهذه عادة الباري جرت فينا
فرحمة الله تهدي نحو كاتبه يا ناظرًا فيه قل بالله آمينا

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبع هداهم إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً".

* * *

عوداً على بدء في قبضة المدينة:

عندما كبر الأبناء خاصة الأولين — حسن وعبد الرحمن. بدأت فكرة النزوح إلى القاهرة تراود الشيخ، وعندما سافر الإمام الشهيد إلى القاهرة لأداء امتحان دار العلوم والانتظام فيها، وتعرض لاعتداء أحد زملائه عليه⁽¹⁷⁾ لم يعد مجال للتردد وأصررت الوالدة رحمها الله، إما الانتقال إلى القاهرة، أو عودة ابنها إلى المحمودية. وكان الشيخ الوالد رحمه الله قد فجع بوفاة والديه سنة ١٩٢٤، فانقطع بذلك أكبر خيط كان يربطه بالبلد، فلم ير مناصاً من الانتقال إلى القاهرة رغم أنه كان قد وطد مكانته في المحمودية، واستقرت أموره بها، وعقد صداقات وثيقة عديدة وكان الانتقال إلى القاهرة يقوض هذا كله.

وهكذا حمل الشيخ قبيلته الصغيرة، التي كانت قد تكاملت، إلى القاهرة..

استقرت الأسرة أولاً في شقة بشارع ممتاز بالسيدة زينب..، ولكن لم يطل المقام بها، إذ انتقلت إلى شقة أخرى، ومن هذه "الأخرى" إلى شقة ثالثة.. وهلم جرّاً. الأمر الذي قد يدesh هذا الجيل.. فعندما قدم الشيخ إلى القاهرة كانت يافطات "شقة للإيجار" تتدلى من بلكنات بيوت القاهرة، وكان المالك يبذل كل جهده ليظفر بمستأجر.. ويقدم له كل التسهيلات والإغراءات..

وفي أحد دفاتر الشيخ وجدنا هذا التسجيل لحركة تنقلات الأسرة..

(17) أشار الإمام الشهيد رحمه الله إلى هذا الاعتداء في كتابه مذكرات الدعوة والداعية عندما تملك الحسد أحد زملائه فسكب عليه وهو نائم — زجاجة صبغة يود، ولم يصب الإمام الشهيد بسوء لأنه تنبه وقام فوراً وغسل وجهه.

- أجرنا البيت في مصر شارع ممتاز بالسيدة زينب، والدكان في ٢٢ محرم ١٣٤٣ - ١٧ أغسطس سنة ١٩٢٤^(١٨).
 - انتقلت العائلة من العطف في يوم الثلاثاء ٣ صفر ١٣٤٣ موافق ٢ سبتمبر سنة ٢٤.
 - انتقلنا من بيت ممتاز في آخر يوم من شهر أكتوبر سنة ١٩٢٤ (٣ ربيع ثان سنة ٤٣).
 - انقلنا إلى بيت عطف مندور بشارع سلامة آخر يوم من شهر نوفمبر سنة ٢٤ موافق ٤ جمادي الأولى سنة ١٣٤٣.
 - انتقلنا من بيت أحمد أفندي رجب بقسم السيدة إلى بيت درب صبيح بقسم الخليفة في أول شهر مارس ١٩٢٥ موافق ٦ شعبان ١٣٤٣.
 - انتقلنا من بيت درب صبيح إلى حارة العسل في أول شهر مايو سنة ١٩٢٥ موافق ٨ شوال ١٣٤٣.
 - انتقلنا من حارة العسل إلى طالون في أول يوليو سنة ١٩٢٥ موافق ١٠ ذي الحجة سنة ١٣٤٣.
 - انتقلنا من طالون إلى حارة العبيد في أول أغسطس سنة ١٩٢٥ موافق ١١ محرم.
 - ومنها إلى عطف عطايا في ٤ منه سنة ١٩٢٦.
- الملخص أننا مكثنا في شارع ممتاز سبتمبر وأكتوبر، وفي شارع سلامة نوفمبر فقط، وفي بيت أحمد أفندي رجب ديسمبر ويناير وفبراير وفي درب صبيح مارس وأبريل وفي حارة العسل مايو ويونيو وفي طالون يوليو فقط. وفي حارة العبيد من أول أغسطس سنة ١٩٢٥ لغاية ٣ منه ١٩٢٦.
- ومكثنا في دكان زين العابدين من ١٧ أغسطس سنة ٢٤ موافق ١٦ محرم ٤٣ إلى ١٥ يناير سنة ٢٥ موافق ١٦ جمادي الثانية ٤٣. وانتقلنا إلى السيوفية في ذلك التاريخ ومكثنا فيه إلى آخر جمادي الثانية سنة ٤٤ موافق ١٤ يناير سنة ١٩٢٦.
- وفي الصفحة التالية:
- انتقلنا من بيت الحاج سيد الكائن بعطف عطايا في أول فبراير سنة ١٩٢٨ إلى منزل مسعود بحارة الروم ومكثنا به ستة شهور لغاية يوليو ١٩٢٨.
 - انتقلنا إلى منزل عباس أفندي عبد المعطي بحارة السنان شهر أغسطس فقط.
 - ثم أجرنا منزل أحمد أفندي وهبة جميعه بحارة عبد الله بك في أول سبتمبر سنة ١٩٢٨ والله أعلم بالمستقبل ومكثنا فيه خمس سنوات وبضعة شهور.
 - خرجنا من منزل أحمد وهبة في آخر يناير سنة ٣٤ وانتقلنا إلى منزل حسن بك لطيف بحارة المعمار ٦ بعطف عبد الله بك في أول فبراير سنة ١٩٣٤ والله أعلم بما يكون.
 - خرجنا من منزل حسن بك لطيف في آخر يونيو سنة ٣٤ وانتقلنا إلى منزل أحمد أفندي أيوب في أول يوليو سنة ١٩٣٤ والله أعلم بما سيكون.

(18) كان الشيخ رحمه الله قد سافر بمفرده إلى القاهرة، وأجر شقة شارع ممتاز، ثم عاد بالأسرة.

- انتقلت من دكان حسن.. في آخر شهر أبريل سنة ٣٥ وانتقلت إلى دكان ومنذرة وقف حافظ بك السيد في أول مايو سنة ٣٥ والله أعلم بما سيكون .
 - ونستأنف حركة التنقلات من واقع دفتر الشيخ (كتاب التوفيقات الإلهامية).
 - في ١٤ من رمضان ١٣٥٥ موافق ٣٠ أكتوبر ٣٦ تركنا منزل أيوب وانتقلنا إلى منزل جنينة ناميش بالسيدة زينب.
 - في يوم الخميس ٢٥ رجب ١٣٥٦ موافق ٣٠ سبتمبر ٣٧ انتقلنا من منزل جنينة ناميش إلى منزل عبد العزيز بك بشارع محمد علي.
 - في يوم ١٢ القعدة. و ١٥ يناير سنة ٣٨ انتقلنا بالمطبعة إلى منزل ورثة محمد عثمان نمرة ٥.
- وقد يكون مما يقطع ملل هذا السرد" المنزلي " أن يعلم القارئ أن بعض هذه المنازل كانت يوماً ما هي مركز الأخوان، عندما انتقلت إلى القاهرة، إذ كان المقر الأول لها هو منزل الأسرة، بحارة عبد الله بك خلال المدة من سنة ٢٨ إلى يناير ٣٤، ثم منزل حارة المعمار. وكانت الأسرة تؤجر المنزل "من بابيه" وهو عادة من ثلاثة طوابق. فالطابق الأرضي (ثلاثة غرف وحوش) يعد مركزاً للأخوان بينما يستخدم الطابقان الآخران سكناً للأسرة. ولأسرة الإمام الشهيد رحمه الله.
- كما كان مكتب إدارة مجلة الأخوان المسلمين هو مكتب الشيخ الذي ذكر أخيراً (منزل ورثة محمد عثمان نمرة ٥ بحارة الرسام).
- وتدل هذه التنقلات المتوالية على أن الأسرة القادمة من العطف لم تستطع للتو أن تتعرف على المدينة، أو تتكيف مع مناخها ومجتمع "الحارة" و"الشارع" وتطلب الأمر مدة طويلة قبل أن تألف الأسرة المدينة وتستقر لمدة سنوات وليس شهوراً، في أحد بيوتها..
- وللمرة الأولى يشعر الشيخ أنه أصبح في قبضة المدينة الصمّاء ومجتمعها الذي يختلف عن مجتمع المحمودية القديم المألوف، حيث كان الأطفال ينمون كما ينمو النبات في الحقل ويرتعون في مروجها و "نجيلها" وعلى شطها، وحيث الاقتصاد طبيعياً، منزلياً يكفي نفسه بنفسه، فضلاً عن أصدقائه وأحبائه الذين عقد معهم وشائج المحبة طوال عشرين عاماً.
- وكانت الأزمة المالية لا تقل عن الوحشة النفسية، فقد كُبر الأبناء ودخلوا السن الحرجة التي يتعين فيها أن يدخلوا المدارس، وما يعنيه هذا من بدل وقمصان وأحذية وطرابيش الخ..
- وكان من رحمة الله بالشيخ أنه في هذه الفترة عندما بدأت الضائقة الاقتصادية تطبق عليه أن عُن ابنه الأكبر — الإمام الشهيد رحمه الله مدرساً بالإسماعيلية بمرتبة خمسة عشر جنيهاً، استطاع أن يمدّه بمبلغ أربعة أو خمسة جنيهات منها، فضلاً عن أنه استقدم إليه بعض أشقائه لمدة طويلة.. وبهذا خف العبء شيئاً ما.
- كانت مشكلة الشيخ أنه لم يكن مستعداً لتخصيص وقت كبير لكسب المال، لأن هذا سيكون على حساب مشروعه العظيم "الفتح الرباني" ولو تيسر له هذا المال لأنفقه على الطبع الذي كان يبتلع أي مبلغ.

وعندما انتقل إلى القاهرة، فإنه خسر مأذونية كفر "مليط"، ولكنه انتهز فرصة خلو مأذونية بعض نواحي السيدة زينب لانتقال مأذونها الشيخ عبد الفتاح البانوبي إلى جزيرة بدران، فكتب إلى قاضي محكمة مصر الابتدائية طالباً تعيينه مأذوناً في هذه الناحية. وأرفق بطلبه محضر انتخاب موقع عليه من أصحاب الشأن، وبيان بمدارس أبنائه وأنها كلها في منطقة "زين العابدين" بالسيدة. وأجيب الشيخ إلى طلبه، وأخطر الشيخ أهالي منطقة "زين العابدين" بذلك.

ولم تعرف الأسرة الاستقرار إلا عندما انتقلت من السيدة إلى الدرب الأحمر الذي سيكون "حي الأسرة" وحي الأخوان أيضاً لفترة ما، كما انتقل الشيخ بمكتبه ومأذونيته إلى حارة الروم، إحدى الحارات التي تعود إلى عهد جوهر الصقلي باني القاهرة.. وانتقل منها إلى حارة الرسام، وهي قريبة منها. وظل بحارة الرسام في المنزل ٥ أولاً ثم المنزل ٩ ثانياً حتى توفاه الله. وقد للأسرة أن تنتقل من أحشاء الدرب الأحمر إلى حي الحلمية، عندما استأجرت بيتاً في شارع عبد الرحمن بك (قريباً من المركز العام للأخوان بميدان الحلمية). ومن الغريب أنها انتقلت من هذا المنزل إلى شقة في حي شعبي هو "اليكنية" - عودة من الحلمية (الخليفة) إلى الدرب الأحمر. وهو انتقال إلى أسوأ بكل المعايير. وأنقذ الله الأسرة من هذه الشقة عندما استأجر الإمام الشهيد رحمه الله الدور الأول بمنزل كبير على ناصيتي شارع إلهامي وتيمور بالحلمية الجديدة وكان له باب على شارع إلهامي والآخر على شارع تيمور. وقد خصص الإمام الشهيد رحمه الله غرفتين تطلان على شارع تيمور لمجلة الشهاب. وأسرة تحريرها وإدارتها وكانت تتكون من الأستاذ سعيد رمضان سكرتير التحرير و كاتب هذه السطور مدير إدارتها والسيد وهبي الفيشاوي للمعاونة. وكان يأتي رحمه الله إليها بعد الاجتماعات. في موهن من الليل. قد يكون الواحدة صباحاً ليكتب أبوابه فيها.. بينما احتفظت الأسرة بأربع حجرات كبيرة وصالة يدخل إليها من باب إلهامي.. وقد خسرت الأسرة هذه الشقة بعد حل الأخوان نتيجة لاعتقالنا جميعاً ومضايقة السلطات للوالدة وسيدات الأسرة. وعادت الأسرة إلى شقة "اليكنية" لفترة ما.

وهذا العرض لتقلبات الأسرة يوضح أن القاهرة بالنسبة إليها كانت تعني مثلثاً أطرافه الخليفة والسيدة والدرب الأحمر - ولم تخرج أبداً عن إطار هذا المثلث..

خلال هذه الفترة الطويلة من سنة ١٩٢٤ عندما جاءت الأسرة من المحمودية حتى سنة ١٩٥٨ عندما توفي الشيخ، كان الشغل الشاغل له أمرين: الأول طبع "الفتح الرباني" الذي كان قد أتمه، وهذا ما سنتحدث عنه في فقرة تالية مستقلة، والثاني القيام بشئون أسرته، وأعباء الأولاد. وكانت أسوأ الفترات هي السنوات العشر التي تلت الانتقال ٢٤ - ٣٤ تقريباً، ففي هذه السنوات، لم تكن الأمور قد استقرت، وكانت عملية كتابة الفتح تستغرق معظم وقت الشيخ، وتقلل نسبياً من ممارسته لحرفته في تصليح الساعات، كما أن الحرفة كانت تتطلب "مواصفات" معينة لم تعد تتوفر في الشيخ كحده البصر.. والتمشي مع التطور الذي بلغته الحرفة الخ.. فضلاً عن كساد سوقها، وانتهى الأمر بأن تخلص منها. وقد يدل على ذلك أن الصفة التي التصقت بالشيخ في أيامه الأولى (المحمودية ثم السنوات العشر الأولى في القاهرة) كانت هي "الساعاتي" ولم يبرز اسم البنا إلا في الفترة اللاحقة. ومن البداية كانت للشيخ الصفتان: البنا والساعاتي. وقد اختار الصفة الأولى لنجله الأكبر (حسن) والصفة الثانية لنجله الثاني (عبد الرحمن)، وأبرز هو نفسه صفة الساعاتي حتى بداية الأربعينيات عندما هجر هذه الحرفة وأبرز صفة "البنا" خاصة وأن هذه الصفة - التي أضافها على ابنه الإمام الشهيد، أخذت تشتهر. وتكسب ذيوغاً. وقد وجدنا بين أوراق الشيخ خطاباً أرسله إلى مجلس محلي بندر المحمودية يدل على الضائقة الاقتصادية التي كان يعانيها. وجاء في الخطاب بعد الديباجة "بما أنني

أمتلك منزلاً ببندر المحمودية مؤجراً لحضرة مصطفى أفندي محمود الجيار تاجر أخشاب بالبندر المذكور، باعتبار إيجار الشهر ٥٠ خمسين قرشاً صاعاً. وأني أستحق عند المذكور لنا حتى مارس سنة ١٩٣٣ مبلغ ٥ ٨٣ قرش ونصف صاعاً، وأن

المجلس يستحق عندي الآن مبلغ ١ جنيه و ٧٢٠ مليم مقسطة عن كل شهر ٥٠٠ مليم، فقد وكلت للمجلس تحصيل القسط المطلوب مني كل شهر من المستأجر المذكور، حتى ينتهي المطلوب مني، لأني لا أمتلك شيئاً بالمرّة من القسط غير هذا المنزل وكسبي الشهري لا يفي حاجاتي الضرورية خصوصاً هذه الأيام التي شلت فيها حركة الكسب بالمرّة. وإن مهنتي أصبحت الآن غير ضرورية عند الناس فرجائي من عزتكم قبول هذا الالتماس.. الخ..

٣٣ / ٣ / ٣١

أحمد عبد الرحمن الساعاتي

ولم يكن الشيخ — فيما يبدو — وحيداً في الضائقة، إذ يبدو أنها أخذت بخناق عامة الناس، وإلا لم يعجز تاجر الأخشاب المستأجر المنزل عن تسديد إيجاره بانتظام.. وقد كانت تلك هي الفترة التي انعكست فيها الأزمة العالمية على مصر.

وهناك مؤشر آخر يدل على الضائقة الاقتصادية التي كان الشيخ يعانيها، ذلك هو أننا لا نجد في دفتر الشيخ أو أوراقه أية إشارة إلى دفعه الزكاة قبل عام ١٩٤١، عندما تظهر للمرة الأولى جملة ستنكرر دائماً كل عام "دفعنا الزكاة والحمد لله على هذا التوفيق" وقد كانت هذه الجملة هي آخر ما سطره الشيخ في دفتره عام ١٩٥٧، بينما احتفظ بين دفتره بأوراق دونّ فيها مفردات الزكاة التي كان يدفعها خلال عام ١٩٥٨ عندما توفي. قبل أن يُتّمها و "يرحلها" إلى دفتره. وهذا الحرص على أداء الزكاة بصورة منهجية له دلالتة، وهو يتفق مع دقة الشيخ وحسن فهمه للإسلام.

وجاء العون الأكبر في فترة الشدة هذه من الإمام الشهيد رحمه الله، على ما أشرنا..

وقد كان المرتب الذي يتقاضاه (خمسة عشر جنيهاً) يثير الدهشة بمقاييس أيامه وبمقاييس أيامنا، فقد كان مرتب معلم الإلزامي ثلاثة جنيهاً أو أقل، وفي فترة لاحقة — بداية الأربعينيات، منح خريجو الجامعة "الدرجة السادسة" وأصبحوا يتقاضون ما بين ١٢,٦ جنيهاً. واعتبر صدقي باشا ممثل أصحاب الأعمال أن الأعمال الحرة "راحت عليها" بعد أن منح خريجو الجامعة "الدرجة السادسة المحترمة" كما قال وقتئذٍ. فإن يُعطى خريج دار العلوم خمسة عشر جنيهاً في عام ١٩٢٧ أمر يثير الدهشة فعلاً. ولمعرفة قيمة هذا المبلغ هذا الوقت نقول أن الرغيف كان بربع قرش صاع، أو كما نقول، عشرين تعريفة. وأن أقة السكر، كانت بسبعة وعشرين مليمًا، وكان الأطفال يذهبون إلى البقال لشراء بتعريفة شاي وسكر، (أي بنصف قرش) فيفتح البقال درجاً كبيراً به سكر ويملاً منه قرطاساً، ثم يفتح درجاً آخر فيه شاي ليملاً قرطاساً أصغر حجماً، وكان هذا السكر والشاي يكفيان عدة مرات، وكان من المألوف في الأحياء الشعبية أن يطلق الجزار العجل الذي سيذبحه، ويسير به أحد أتباعه وهو يصيح "من دا بكره" فيرد "كورس" الأطفال الذين يسرون وراءه "بقرشين" أي أن رطل اللحم من هذا العجل بقرشين، وكانت البيضة بمليم وربما أقل. وفي أيام الحلمية (٤٥ — ٤٨)

افتتح أحد الناس محلاً لبيع الساندوتش ووضع يافطة كبيرة "قف هنا لتأكل سندوتش ٣ مليم" ولم تكن الحلمية وقتئذ حياً شعبياً، فالمليم كان له قيمة، وكان هناك "النكلة": أي المليمين، والعشرين تعريفة، أو عشرين خردة أي مليمين ونصف وكانت مضلعة ثم التعريفة، أي الخمسة مليمات " ثمن الصحيفة اليومية ١٦ صفحة" ثم القرش الذي كان وحدة التعامل.. فإذا ترجمت هذه الأسعار إلى أسعار سنة ١٩٩٠، لكانت القيمة الشرائية لخمسة عشر جنيهاً سنة ٢٧ تماثل ما بين ألف وخمسمائة جنيهاً.

وهكذا استطاع الإمام الشهيد رحمه الله أن يمد والده بما بين ثلاثة وخمسة جنيهات شهرياً، فضلاً عن مصروف للشقيق عبد الرحمن، كما أخذ معه بعض أشقائه بالإسماعيلية لفترات طويلة. وفي سنة ١٩٤٥ باع الشيخ دكان المحمودية وما حوله من أرض، وكان على النيل مباشرة. ومن المحتمل أن تكون وراء ذلك الرغبة في مواصلة طبع الفتح أو لمقابلة تكلفة رحلة الحج الوحيدة التي قام بها الشيخ هذا العام.

بهذه الطريقة تمكن الشيخ رحمه الله من اجتياز هذه الأزمة بدرجة من التقشف، وهذا التقشف الذي كان إلى حد ما - ضرورة - أصبح خطة مقررة حتى عندما انتفت ضروراته المادية، لأنه يتفق مع التوجيهات الإسلامية والسنة النبوية، كما كان يتفق مع السياسة التي اتخذها الشيخ في البعد عن السؤال، وعدم التحايل في طلب الرزق أو جعل الكسب المادي هو هدف الحياة، فهذه كلها كانت بعيدة - حقاً وصدقاً - عن فكر الشيخ، وعن فكر الإمام الشهيد رحمه الله أيضاً فعاش متقشفاً وهو ما نأخذ به أنفسنا، خاصة بعد أن اخترنا "العمال" جمهوراً نتوجه إليه بدواعتنا.

معركة طبع الفتح:

كانت عملية طبع ونشر "الفتح الرباني" وشرحه بلوغ الأمانى معركة فاقت في شدتها معركة التصنيف والتحرير، ففي هذه الحالة الأخيرة - حالة الكتابة - كان المطلوب هو أن يقسو الشيخ على نفسه ليحقق أفضل ما يمكن أن يصل إليه في هذا المجال. وقد أخذ الشيخ نفسه بذلك ووفق فيه والحمد لله.. أما في حالة الطبع فلم تكن المسئولية مقصورة عليه. لأنها كانت تتعلق بأموال ومطابع، ودور نشر وقراء ولم تكن هذه لتتعلق بكتاب من جزء واحد - يطبعه ويخلص منه. ولكنه كان أمر كتاب من عشرين جزء، كما تصور (و ٢٤ كما صدر بالفعل) وكان يجب على من يشتري الجزء الأول أن يواصل شراء بقية الأجزاء على امتداد عشرين عاماً، حتى لا يُخل ذلك بعدد أجزاء النسخ الكاملة، أو أن ينتظر حتى تصدر أجزاءه كلها وأنى يمكن التوصل إلى شيء كهذا.

كانت المهمة ضخمة، ولم يكن يتصور أن يقوم بها فرد واحد، دع عنك أن هذا الفرد لا يملك مالاً أو جاهاً. وليس اتصالات أو علاقات بدور النشر أو المكتبات التي كان يرفض التعامل معها، ويرى فيه نوعاً من استنزاف المؤلف. إذ عندما يأخذ الموزع ٣٠% (على الأقل) من ثمن الكتاب، و ٤٠% في كثير من الحالات فماذا يبقى للورق والطبع والتأليف؟.. إن مثل هذه النسب توقف المؤلف على شفا الإفلاس، وتحول دون أن يواصل الطبع.. فضلاً عما في ذلك كله من تعليق لأمر نفسه على غيره، وما قد يضطر إليه من رجاء.. وانتظار.. الخ..

لهذا قرر الشيخ أن يعتمد على نفسه في الطبع، كما اعتمد عليها في التأليف وهذا من أكبر علو همته وصدق عزيمته.

اشترى الشيخ كمية من حروف الطباعة المشكلة (أي بالشكل من فتحة وضمة الخ..) تكفي لطبع ملزمتين (أي ١٦ صفحة من القطع الذي ظهر به الكتاب) واستأجر لها مكاناً بجواره، واستخدم عاملاً ماهراً أميناً يقوم بجمع الملزمة فيصححها الشيخ ثم ترسل لتطبع في مطبعة قريبة، بعد أن يشتري الشيخ بنفسه الورق اللازم لها.

كان الشروع في طبع الجزء الأول، كما كتب الشيخ في دفتره، سنة ١٣٥٣ - ١٩٣٤. وفي سنة ١٣٥٩ - ١٩٤٠ كتب الشيخ (انتهينا من طبع الجزء الثالث عشر من الفتح الرباني في ربيع الأول) أي أن الشيخ رحمه الله طبع خلال ست سنوات هذه الأجزاء الثلاثة عشر، أي بواقع جزأين كل سنة وهي واقعة تثير الدهشة خاصة مع الضائقة المالية التي كان الشيخ يعانيها، ولا بد أن هناك عوامل أخرى موالية مكنت الشيخ من أن يمضي قدماً، لعل منها أنه وإن ظل معتكفاً في مكتبه، معتزلاً الناس، بعيداً عن الدوائر " المشيخية" في الأزهر والأوقاف الخ.. فإن صيت ابنه البكر بدأ ينتشر، وأخذت دعوة الإخوان المسلمين تزحف على الريف والحضر. وعندما أصدر الإخوان المسلمين تزحف على الريف والحضر. وعندما أصدر الإخوان المسلمون أول مجلة لهم باسم "مجلة الإخوان المسلمين" جعلوا الشيخ مديراً لإدارتها ومشرفاً على طباعتها، وقد وجدنا في مكتب الشيخ عشرات الظروف الحكومية معنون عليها "مجلة الإخوان المسلمين بالقاهرة" وقد أثار عجبنا كيف سلكت هذه الظروف طريقها إلى حارة الرسام دون أي إشارة على الظرف.. هل يعود ذلك إلى أن الخدمة البريدية كانت تؤدي بإخلاص وتفان، أو لأن القاهرة لم تكن قد توسعت هذا التوسع العشوائي، أو لأن شهرة الإخوان المسلمين سمحت بهذا.. وكانت هذه الظروف الحكومية ذات الحجم واللون الواحد تحمل داخلها "الإعلانات القضائية" التي كانت من أهم موارد الصحف وقتئذ - وكانت الجهات المختصة توزعها على الصحف ولا ريب أن ظهور الإخوان وانتشارهم، جعل للشيخ جمهوراً لم يسع إليه وما كان يمكن أن يصل إليه بطرقه الخاصة.

ويمائل ذلك أن رزقه الله تعالى تأييد اثنين من رجالات "الحجاز" أعجبا بعمل الشيخ إعجاباً عظيماً، ولأهمية دورهما، وتقديراً لهما، سنفردهما بالفقرة التالية.

الصَّاحِبَانِ:

كان هذان الرجلان هما السيد محمد نصيف. والشيخ عبد الظاهر أبو السمع رحمهما الله.

١ - كان السيد محمد نصيف رحمه الله هو "عين أعيان جدة" كما كنا نطلق عليه، وكان الملك عبد العزيز ينزل في بيته عندما يزور جدة، وكانت هواية السيد نصيف هي تقصي الكتب وجمعها والتعرف على أصحابها وتشجيعهم، وكانت لحظات سعادته هي التي يكتشف كتاباً، فيشتري عددًا من النسخ منه، ويرسلها هدية لإخوانه. وكان طبيعياً أن يعني هذا الرجل - وقلبه معلق بالكتب - بالفتح الرباني. وأن يجند نفسه لخدمته. فالفتح الرباني عمل ضخم وهو يتفق مع المذهب المقرر للسعودية - المذهب الحنبلي.

ويبدو أن الاتصالات ما بينه وبين الشيخ بدأت بعد ظهور الجزء الأول من الفتح مباشرة. ويحتمل أن تكون قد دارت بعض المراسلات قبل الخطاب الأول الذي عثرنا عليه في أوراق الشيخ. وهو بطاقة معايدة صغيرة مطبوعة أضاف عليها بخطه: " أقدم مع هذا كتاباً وردَ لكم من الرياض من أفضل أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب " الدعوى " الإصلاحية بنجد رحمه الله تعالى أمين الأستاذ الشيخ محمد بن عبد اللطيف، ولذلك اغتنمت شرف الكتابة إليكم وأني والحمد لله قد اقتنيت مؤلفكم الحديث واشتريت لي

ولأصدقائي خمس نسخ، وأول من أحضره للحجاز العبد لله" وليس على المعايدة تاريخ ولكن تاريخ خطاب الشيخ محمد بن عبد اللطيف عام ١٣٥٤.

وطبيعي أن يكون "أول من أحضره للحجاز" هو السيد محمد نصيف رحمه الله، فمن أولى بذلك منه.

أما الخطاب المرفق المرسل من الشيخ محمد بن عبد اللطيف فكان خطاباً تقليدياً طويلاً بخط جميل أشبه باللوحة وقال فيه الشيخ بعد ديباجة طويلة " .. وبعد فإننا أشرفنا على ترتيبكم لمسند الإمام أحمد فوجدناه وافياً بالمقصود، فحمدنا الله على ما وهبك من هذا المقام الشريف، وخدمتك للسنة النبوية وإحياء الملة الحنيفية، وهذه منة جسيمة، ونعمة هيأها الله على يديك، لأنك لم تسبق إلى هذا الصنيع. فعلمنا أن في الزوايا خبايا، وأن لأهل العلم بقايا يذبون عنها زيغ الزائغين وانتحال المبطلين. فالذي أوصيك يا أخي تقوى الله تعالى وإخلاص النية والقصد وإمعان النظر في كتب الشيخين الفاضلين شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية. فإن من تبصر فيهما وكرر النظر فيهما فلا بد أن نفرق ما كان عليه الرعيل الأول، فإن الله جعل كتبهما في آخر هذا الزمان فرقاناً بين الحق والباطل، وميزان صدق وعدل بالنظر فيهما تتزاح عن القلب شبهات المبطلين وخيالات الضالين وتسفر لمن وفقه الله عن الحق المبين، وترقى به إلى منازل الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين هذا ما نحب لك وندعوك إليه، مع أننا نشكرك على صنيعك هذا وبلغ سلامنا من لديك من الأخوان الذين هم من أهل السنة وأتباع السلف الصالح، وكل من عندنا من المشايخ يشكركم على هذا الصنيع ويدعو لكم بالتوفيق ودمتم سالمين.

وقد وجدنا بمكتب الشيخ الوالد رحمه الله عدداً كبيراً من رسائل الشيخ نصيف سنشير إلى بعضها، ففي ١٧ رمضان سنة ١٣٥٥ أرسل خطاباً فيه حوالة على بنك مصر بمبلغ خمسة جنيهات (وكان وقتئذ مبلغاً كبيراً) ليقبدها الشيخ من قيمة "مصنفكم الجليل الفتح الرباني (حسب البيان الموضح أدناه) ويعلم الله أنني أحببتكم على الغيب لأثارتكم النافعة وأي أثر أكبر من خدمة السنة النبوية وإرشاد الأمة الإسلامية بمجلة الأخوان المسلمين وما بها من نصائح غالية في هدوء وسكون وبعد عن الجدال بالباطل فجزاكم الله خيراً أمين، وجعل الله طريقتكم في الإرشاد وخدمة الإسلام على الدوام موافقة لما يحبه ويرضاه أمين، ولا ينبغي أن أنسى تقديم جزيل السلام للأستاذ الكبير والعالم الشهير الشيخ طنطاوي ودمتم سالمين".

والشيخ طنطاوي هذا هو الشيخ طنطاوي الجوهري الذي عهد إليه الأخوان برئاسة تحرير مجلتهم تقديراً منهم لعلمه وهو صاحب تفسير يدعى "تفسير الجواهر" وكتابات إسلامية عديدة وهو أحد "الجنرالات" المجهولين الذين ظلمهم الفكر الإسلامي الحديث حقه.

ويتلو ذلك قائمة بأسماء المشتركين وهم السادة محمد نصيف. عبد الملك بليلا، محمد بن عبد الله. عبد الرحمن الشامي. محمد عبد اللطيف. إبراهيم الضبع. عبد الوهاب الدهلوي.

وفي شوال من العام نفسه أرسل السيد محمد نصيف ثلاثة خطابات أحدهما في التاسع منه. والثاني في السادس عشر والثالث في آخره وفي خطاب ٩ يقول بعد الإشارات المعهودة إلى المشتركين القدامى والجدد يقول: "وسلموا على الأستاذ الشيخ حسن البنا حفظكم الله ورعاكم، وقد اطلعت على رسائل الأخوان المسمين المسماه "نحو النور" وسررت بها كثيراً ولم تغادر صغيرة ولا كبيرة من النصائح الغالية للراعي وللرعية إلا أنت بها بصورة معقولة، مقبولة، مراعية ظروف الأحوال وحال الناس، والله أسأل أن يكلل أعمالكم بالنجاح، ويوفق رجال الدولة الإسلامية للعمل بما في الرسالة. وبغير الشرع الحنيف لا نجاح

للمسلمين وإن زين الشياطين لهم أعمالهم الحاضرة، ورأوا قيام بعض الحكومات بغير الدين، فالعاقبة على المخالفين وخيمة وإن طال الوقت. ولا يغرّنك تقلب الكافرين في البلاد متاع قليل والعاقبة للمتقين، والله تعالى يرعاكم، وأهدي جزيل سلامي لحضرات الأفاضل أعضاء الجمعية خصوصاً المرشد العام حسن البنا حفظهم الله آمين ودمتم سالمين ."

وفي خطاب ١٦ شوال قال: "وقد كتبت إلى الشيخ أبي السّمح بمكة أسأله عن سبب السكوت عن طلب جلالة الملك المعظم، وأقد أرسلت نسخة من الفتح الرباني إلى صنعاء لأحد أصهار الإمام يحيى، لأن الزمان قد استدار فصار بعض علماء الزيدية يقرؤون كتب الحديث لأهل السنة البخاري ومسلم، ويقولون إن عوامهم إذا حضروا دروس الفقه لا يحبونها، لأنهم لا يفهموها وإذا حضروا دروس الحديث يفهمونها، والله الحمد والمنة فطرة سليمة وإيمان يمانى".

وفي الخطاب المرسل آخر شوال طلب إرسال الكتب مع الحجاج ليخفف على المشترّكين أجره البريد ويستترّد: "وقد جاءني الجواب من الشيخ أبي السّمح يقول إن المالية استكثرت ألف جنيه، وأنه استحي أن يخبركم، وأنه يؤمل عند رجوع الملك المعظم للحج فيعيد عليه الكرة مرة أخرى، وأنا قد اخترت الأستاذ الشيخ محمد بن عبد اللطيف ليسعى في الشراء، ولو الخمسة أجزاء التي ظهرت وبعدها يخلق الله ما لا يعلمون. ويخفف المالية شراء الخمسة وكلما صدر جزء يشترونه، وبسبب نقص موارد الحكومة وكثرة مصاريفها صارت تصعب الصرف في أمور تجهلها لأن رجال المالية لا يهتمون بأمر الكتب".

وفي ١٧ المحرم ١٣٥٦ كتب إلى الشيخ يخبره أن الأمير سيف الإسلام الحسين بن الملك يحيى اطلع على الكتاب في مكتبه، فأعجب به ودفع قيمة اشتراكه في نسخة، وأرسل مع خطابه حوالي ثلاثة جنيهاً مصرية، وطلب إرسال النسخة سريعاً بعد تجليدها إلى صنعاء والأمل بعد وصول الأجزاء تكثر الرغبة في صنعاء فيطلب بكثرة الهمة الهمة يا أستاذ!!.

وفي ٩ القعدة ١٣٥٧ هـ اقترح على الشيخ أن يكتب لفضيلة الشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ليرغب جلالة الملك في الاشتراك في خمسمائة نسخة: "لأن جلالته أحق الناس بإشاعته وطبعه ولقلة طلب الناس لهذا العلم النافع ستضطرون في المستقبل لعدم إتمام طبعه، ولا يسوغ ذلك في زمن أثار السلف الصالح ومن أحق بالفخر بنشر هذه الكتب غير جلالة الملك، فمن مثله في الملوك طبع كتب التفسير لابن كثير والتاريخ له والمغني والشرح الكبير في الفقه التي عم نفعها الناس وغيرها من ألوف الكتب التي توزع مجاناً على أهل العلم" ويوصي الشيخ بكتابة خطابه بخط جميل مختصر وأن ينوه فيه باشتراك جلالته بواسطة الشيخ السّمح، وأنها قليلة ولا يمكن نشر الكتاب كله إلا بمساعدة جلالته بالاشتراك في خمسمائة نسخة، ومسألة الأقساط أنا أهونها على وزير المالية في كل شهر خمسين جنيهاً.

وليس لدينا ما يثبت أن الشيخ رحمه الله قد كتب إلى الشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ، ولكن هذا محتمل خاصة وأن الشيخ محمد بن عبد اللطيف قرظ الكتاب تقريضاً حسناً، ويُسْتَبَد أن الشيخ لم يرد تحيته بمثلها — على الأقل — إن لم يكن بأحسن منها.

وهناك عدد كبير من الخطابات عام ١٣٥٦ لمتابعة تطور اشتراك الملك من ناحية، ولأن السيد نصيف كان يواصل الدعوة للكتاب وللإشتراك فيه، ويفيد الشيخ أولاً بأول بالمشترّكين الجدد، وإرسال قيمة اشتراكهم. وفي ١١ من ذي القعدة ١٣٥٦ كتب بعد المقدمات المعهودة: "وتجد أصحابنا يتألمون من أجره

البريد غاية الألم، وهي أجرة باهظة غير معقولة". وعبر عن أمله في رؤية الشيخ وقال: له أن أحد زواره قال أن لحية الشيخ على السنة! "وإن كانت لحيتي أقل من قبضة، ولكن لحية الشيخ أبي السمح وصهره محمد حمزة زيادة عن قبضة، والأخ الهندي عبد العزيز أكثر من قبضتين وثلاثة قبضات تملأ صدره، وسلموا لي على الشيخ حسن، وقد رأيت صورته بطربوش ولحية بارك الله فيه، وفينا جميعاً آمين ودمتم سالمين".

وكان من عادة السيد محمد نصيف رحمه الله أن يضمن بعض خطاباته شيئاً من المداعبة من ذلك ما جاء في خطاب في ٢٩ رمضان سنة ١٣٥٧ عن إغراء الأخوة النجديين للشيخ أبي السمح على الزواج مع أن عنده عشرة أبناء كان الله في عونهم!".

وفي ٧ من ربيع الأول سنة ١٣٥٨ هـ كتب السيد محمد نصيف إلى الشيخ خطاباً مطولاً يقول له فيه أنه لما بلغه أن جلالة الملك ابن سعود اشترى كتباً منها كتاب (نصب الراية) ووجد فيها مقدمة "الكوثري" في الطعن على علماء الجرح والتعديل وأئمة المذاهب الأخرى تسيباً لمذهب أبي حنيفة، وكذبه على شيخ الإسلام ابن تيمية وتجهيلاً له ولغيره من العلماء وللشيخ محمد عبد الوهاب مصلح نجد، وأنه بين ذلك لجلالة الملك، وأن توزيع هذه الكتب لا يجوز، وأن أحق كتاب فيه فخر الدنيا والآخرة هو "الفتح الرباني" لو أمر جلالة الملك بخمسمائة جنيه دفعة واحدة لحضرتكم قيمة نسخ من الكتاب المذكور، فيصدر الكتاب في أقرب وقت وتوزع النسخ على علماء الجهات الذين يزورون جلالة الملك وقت الحج يكون في ذلك فخر الدنيا والآخرة، ومن أحق بهذا الفخر من جلالته.. فجاء الجواب كالاتي:

"أما كتاب "الفتح الرباني" في ترتيب مسند الإمام أحمد فنحن ممنونين من طبعه واشترانا بألف نسخة منه يكون معلوم".

والأمل أن جلالته يأمر المالية بإرسال مبلغ الخمسمائة جنيه مصري مقدماً، وهي ليست بكثير، خصوصاً وأن معدن الذهب في حره بني سليم ناجح، والبتترول ناجح، ستكون بعد عشر سنوات واردات الحكومة نحو عشرة ملايين جنيه ذهباً والحمد لله رب العالمين ودمتم سالمين".

ولكن هذا (النطق الملكي) لم يتحقق تماماً ولم تشترك الحكومة في ألف نسخة ولكن في مائة.

وظلت الخطابات متصلة ما بين السيد محمد نصيف، والشيخ، وفي كل منها يفيد السيد بزيادة مشترك، أو يطلب إرسال أجزاء معينة أو تجليدها، أو تتضمن حوالات بقيمة الاشتراكات. وفي أحد هذه الخطابات يقول أنه أقنع الشيخ يوسف زينل ونجله الشيخ إبراهيم فاشترى " نسخة كاملة بواسطة وكيلهم في القاهرة " وآل زينل من كبار سُرارة السعودية وقتئذ ويبدو أن السيد نصيف أقنعهم بما هو أكثر من شراء "نسخة كاملة" لأننا وجدنا بين أوراق الشيخ صورة لخطاب شكر للشيخ يوسف زينل. وكانت القاعدة التي وضعها الشيخ لمن يريد المساعدة وتشجيع الطبع هي شراء عدد من النسخ بقيمة مساعدته.

وكل خطابات السيد محمد نصيف رحمه الله تنبض بالعاطفة للشيخ، والإمام الشهيد كذلك وفي كثير منها طلب لـ "رسائل المأثورات" أو "نحو النور" أو مجلدات من "مجلة الأخوان". والخطاب الأخير فيما وجدنا بتاريخ ٨ المحرم ١٣٧٣، وهو خطاب مؤثر يبدو أن السيد كتبه في حالة نفسية سيئة لأنه مضطرب الكتابة شيئاً ما، وفيه يقول: "البال مشغول بعد وفاة أكبر أبنائي حسين رحمه الله، توفي بمصر وحضرت وفاته بمصر. وكانت إقامتي بمصر للتداوي أحد عشر يوماً، وهو كان بصحة وعافية. فبعد وفاته رجعت إلى

جدة ومعني أحد أبنيه محمود، كان في مدرسة الهندسة والحربية المصرية، وصل في أول شهر رجب ١٣٧٢ مع البعثة العسكرية السعودية وفقهم الله لخدمة الإسلام، وقد سُرَّت الحكومة السعودية بذلك، وفقها لما يحبه ويرضاه وجعل الخير على يديها، وسلموا لي على الأجل، والأصدقاء من هنا يسلمون عليك.

وعاد حفيدي محمود إلى مصر بعد أن سلى أمه وأخته. وقد قال لي طبيب العيون يكون رجوعي إلى مصر بعد عام واحد، حتى يجمد الماء في العين لإجراء العملية.

وختَمَهُ: "وربنا يحسن الختام ويتوفانا على الإيمان آمين".

رحم الله السيد محمد نصيف، وأثابه عن جهوده الطيبة في خدمة السنة والثقافة الإسلامية خير الثواب.

ب – وأما صاحب الثاني فهو فضيلة الشيخ عبد الظاهر أبو السمح، وهو عالم سلفي من أصل مصري استوطن مكة، وتولي إمامة الحرم الملكي، وأسس بها دار الحديث، وحظي بمنزلة مكينة من الملك عبد العزيز وعلماء السعودية. والخطاب الأول الذي عثرنا عليه في مكتبة الشيخ يعود إلى ٩ ربيع الآخر سنة ١٣٥٤ هـ وفيه يقول بعد الديباجة:

" فقد أخبرني صديقي الفاضل محمد أفندي مصطفى الفقيه أنكم تفضلتم بإهدائنا نسخة من كتاب الفتح الرباني؛ فلم يسعني إزاء ذلك التفضل إلا شكركم، والدعاء لكم. وإني منذ رأيت إعلان عن الكتاب. وأنا أثنى عليكم وأتوه بعملكم هذا المبرور بين الناس، وقد اشتكر بعضهم، وأملني أن يكثر المشتركون في الحجاز إن شاء الله . وليس تنويهي بالكتاب ومُرَّتَبِهِ وخادمه إلا تنويه بالسنة نفسها، ونشرها. وقد كتبت كلمة أرسلتها لمحمد أفندي في هذا العدد لينشرها، فما أدري هل قام بذلك أم لا.

هذا وإنكم يا أخي قد رفعتم رأس مصر بهذا العمل الجليل. وأقمتم الدليل على أن في الكنانة من يخدم السنة ويعمل على إحيائها، فلم يبق لأهل الهند استنثار بهذا الأمر بعد أن ضربتم لهم هذا المثل، أعانكم الله وأجزل ثوابكم وأدام توفيقكم، وجعلني وإياكم ممن يحيون السنة ويميتون البدعة. والمشترون عندنا أكثر من ١٢ مشتركاً وإن كانوا يتأخرون أحياناً عن الدفع، فنقوم عن بعضهم، ولا عجب فإن أكثر محبي السنة – إن لم أقل كلهم – ليسوا بأهل ثراء وغنى إنما هم من الفقراء.

وإني أكرر الشكر لفضيلتكم، وأسأل الله أن يجزيكم عن مُحِبِّكُمْ في الله خيراً، وأن يجعل هذا الكتاب رابطة ود في الله، وإخاء له تعالى لا تنفصم عراها على مر الليالي والأيام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وعلى الهامش كتب:

"وأبشر الأخ بأن الكتاب سيروِّج جداً بحول الله وقوته، وسأجتهد لدى جلاله الملك ليأخذ منه كمية، وحبذا لو ساعدني الأخ على هذه الأمنية بتجليد الجزئين الأولين تجليداً حسناً، وكتب عليه الاسم، وأرسلت إليه هدية وأنا سأكتب إلى جلالته اليوم كتاباً ممهداً لذلك".

وقد ركز الشيخ أبي السمح جهده لخدمة الكتاب، وفي حمل الملك عبد العزيز على الاشتراك في أكبر عدد ممكن. وبين يدينا عدد من الخطابات تلقي ضوءاً على هذه العملية، وتكشف خلالها عن بعض الظروف

المالية التي كانت تمر بالمملكة وقتئذ، والتي كانت تقضي عليها بأشد الأساليب تقشفاً: "ولكن المستقبل سيكون أفضل" كما جاء في أحد الخطابات" لأن البترول قد بدأ يظهر وكذلك الذهب في أجياد.

وفي ٢٣ ذي الحجة ١٣٥٤ كتب إلى الشيخ: "ثم أن نجلكم الكريم حسن أفندي قد لقينا، وزارنا بدار الحديث وقد سررت بلقائه جداً وحمدت الله أن جعله من الدعاة إلى الفضيلة، وقد تسلمنا هديتكم بيد الشكر والثناء على نفسي وعن دار الحديث، جزاكم الله خيراً، وبارك فيكم وأخلف عليكم.

وقد زرنا جلالة الملك ليلة أمس وذكرنا كتاب الفتح وقد ترجمته له ترجمة سر بها وشوقته إلى الاشتراك في مئات من الكتاب، وقد أمرني أن أكلم حضرتكم في ذلك، فهو كان يريد ٢٠٠ نسخة فقط، فراجعت له ليأخذ ٥٠٠ فوافق، وأمر أن أكتب لكم في ذلك. أفيدونا لعلنا نحصل لكم على شيء من ثمنها يساعدكم على إتمام الطبع".

وهناك خطاب آخر دون تاريخ بهذا المعنى وفيه يقول: "والمقصود أنني كنت قابلت جلالة الملك، وتذاكرنا في "الفتح" وما إليه، وكان قد وصله منكم هدية منه، فسألني عن فضيلتكم، وعن الكتاب نفسه فأبديت لجلالته ما يسركم، فرغب في الاشتراك بمائتي نسخة، فقلت له: قليل يا مولانا حتى أبلغناها إلى خمسمائة. ثم طلب مني الاتفاق معكم على أقل ثمن لها من الأبيض والأصفر.. الخ.

ولكن يبدو أن الإجراءات البيروقراطية ومشاعل جلالة الملك أرجأت التنفيذ.

وفي ٢١ صفر سنة ١٣٥٦ كتب الشيخ أبو السمع:

"وإني لخجلان ويعجز القلم عن وصف ذلك الخجل الذي عراني من أجل تأخير اشتراك جلالة الملك في "الفتح"، إذ بعد أن جاء كتابكم الكريم عرضته على جلالة الملك، وبعد أن رد لي الجواب بأنه أمر وزير المالية بما يلزم، وكتب لي وزير المالية بعمل الحساب للعدد المطلوب، فلما وجدته فوق الألف جنيه استمهلني أياماً، وما أدري إلا بالجواب يقول أن جلالة الملك أمر بوقف المسألة الآن، حتى يتم الطبع فعرفت أن الملك قد روجع في المسألة ليوقفها فوقفت. ولكني عدت فراجعت وقلت: لو أن تشتركوا في مائة نسخة.. الخ.

وفي ١٧ ربيع ١٣٥٦ كتب:

مولاي، لم آل جهداً في الكتابة لجلالة الملك حتى قبل الاشتراك في مائة نسخة، كما ترون في كتابه الرسمي لي، فأرسلوها مجلدة بالقماش تجليداً ظريفاً من الجلد ٢ قرشاً صاعاً مثلاً واجعلوا منها نحو ثلاثين نسخة جلد أفرنجي لا يزيد عن ٤ قروش صاغ أو ٣ مثلاً.. الخ. وطلب في نهاية الخطاب أن يعيد الشيخ البنا خطاب جلالة الملك الأمر الذي فعله الشيخ بعد أن أشر على الخطاب "كان مع هذا خطاب رسمي من جلالة الملك".

ومن الواضح أن طلب الشيخ أبي السمع إلى الشيخ البنا إعادة خطاب جلالة الملك هو ليتمكنه المحاسبة والاحتجاج به إذا طرأ ما يتطلب ذلك لأنه كان المتولي للمسألة كلها.

وفي ٤ رمضان سنة ١٣٥٦ كتب:

".. ثم المعاملة في الاستلام والتسليم بيني وبين الحكومة كما أريتك في كتاب الملك. وفي كتاب آخر منه يقول: "أمرنا المالية باستلام الكتب منك وتسليمك الثمن وكذلك كان، وصار لي الحق أن أزيد ما أغرمه

من جيبني من المصاريف، وما أنفقه على العمال، طبعًا أنا وحظي، إن أعطتني الحكومة فله الحمد، وإن لم تعطه أحتسبه في خدمة السنة. وقد تكلفنا في تفريق الصندوق الكبير الذي أرسلتموه إلى ٦ صناديق ليتمكن حمله على الجمال.. الخ. وإن خادمي ليذهب كل ليلة في رمضان إلى المالية بالسند، فيعطى مرة ٨ جنيه ومرة لا يعطونه، وناس يصبرون بالشهور على مالهم عندنا، ولولا ما للفقير عندهم — وإنها مسألة تتعلق بالملك نفسه — ما حصلنا على المبلغ بعد سنة. فالحمد لله على أني إلى ساعة كتابة هذا لم أوف، وآثرتك بالذي حضر، والرجا قبول عذري، فإن التأخير والله لم يكن بيدي بل رغم أنفي وإلى الله المشتكى".

وبعد هذا التاريخ بيومين فحسب (أي في ٦ رمضان) أرسل إلى الشيخ خطابًا جاء فيه بعد الديباجة: " فالى الآن لم تصل الكتب من جدة، وهذا الذي كنت أعمل له ألف حساب. فإن الحجاج أخذوا يفون بكثرة، وإذا كثروا وقعت أزمة في الجمال، فتغلو البضائع لذلك، وتُعطل في الجمرک إلى أن نجد الجمال لحملها. وقد أرسلت لمحمد أفندي نصيف منذ جاءني كتابه المرسل من السويس أي منذ ١٤ يومًا، وقد كان صندوقًا ضمن بضاعة لتاجر في جدّة اسمه أحمد باعشن فذهب الأفندي إلى الجمرک، ونقل الصندوق إلى منزله، ولكنه لم يجد الجمال لنقله.. وقد قسمه إلى ستة صناديق ليتمكن حملها. ونسأل الله أن يُسلمها من المطر والسيول حتى تصل، ونسلمها لوزارة المالية، ونستلم الثمن، ثم نرسل لكم ما بقي إن شاء الله. لا يكن عندكم فكرة، والسلام وإنما أرسلت هذا لأطمئنكم وأهنئكم بشهر رمضان".

وهناك عدد من الخطابات كلها تدور حول تسليم وتسلم النسخ، والمتاعب التي لاقاها مع المالية، وأنهم لا يدفعون إلا بعد استلامهم الكتب. وهناك خطابان يحثان الشيخ على اختصار الشرح سنشير إليهما. وفي خطاب ١١ ربيع الأول ٥٨ (مايو ٣٩) يقول أنه " علم من الأفندي نصيف أن جلالة الملك سلمه الله سيشترك في ألف نسخة من "الفتح"، ولكن لم يصلني ذلك من ديوان جلالته رسميًا، لأنه مسافر إلى الإحساء لأعمالٍ ثم يعود، وسأتصل بجلالته عندما يعود إلى الرياض إن شاء الله وأتحقق الأمر بنفسي".

وفي ٢ جمادى الأولى سنة ١٩٥٨ أرسل الشيخ أبو السمح للوالد يقول بعد الديباجة: " .. هذا وبلغوا سلامي وعتبي لنجلكم الكريم حسن أفندي، وذلك أنه نشر في النذير لولدنا عبد اللطيف مقالاً عنوانه " من صلوك إلى ملك " باسمه الصريح، ولا بد أن تقرأوه إن لم تكونوا قد قرأتموه، وفي المثل العامي المشهور " إذا كان المنكلم مجنوناً كان السامع عاقلاً " فكان حقاً على الأخ حسن أفندي وهو السياسي المحنك والفقير الديني أن يلاحظ صلتنا وصلتكم بجلالة الملك العربي المسلم ويحافظ عليها، فلا يترك مجالاً لسفيه كهذا يكتب ما كتب مما أساءنا به وأساء الملك وأولاده الأمراء.

ومن جهة الدين، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكون بهذه الصفة فالأمل أن يكتب الأستاذ كلمة يمحو بها ما تقدم معتدراً. وفي الحقيقة إن الملك عبد العزيز لا نجد مثله ينصر السنة، وينشر كتبها ويعظم شعائر الله، وهذه سيرته ماثلة لكل من أراد الحقيقة، أما من أراد الباطل والصيد في الماء العكر. فهذا مخذول.. وختاماً سلاماً.

والخطاب الأخير الذي عثرنا عليه في أوراق الشيخ بتاريخ ١٤ رمضان سنة ١٣٥٨ وقد كتبه الشيخ أبو السمح في مجلس حضرة السيد محمد نصيف، ولهذا وقع الاثنان عليه وجاء فيه وبعد.. فإنني لم أُل جهدًا

في تفريج كربتك، وإجابة طلبتك، وإرسال ما بقي لك حتى يبسر الله لي، وحولت لك المبلغ وقدره ١/٢ ٦ جنيهاً على بنك مصر. ومع هذا الحوالة بالمبلغ المذكور فتفضل بتسلمها.

رحم الله الشيخ عبد الظاهر أبو السمح ونصّر ثراه.

* * *

واستقراء الخطابات التي كتبها "الصاحبان" يوضح لنا كيف أن إحساسهما العميق بالواجب دفعهما للقيام بهذه الجولات والمحاولات التي وصلت إلى درجة الإلحاح والمتابعة مع الملك نفسه، ثم مع البيروقراطية التي تنتهي إليها الأمور. كما يكشف عن الظروف الاقتصادية القاسية التي كانت تمر بها المملكة وقتئذٍ — والتي جعلت ألف جنيه مبلغاً يعسر على وزارة المالية تسييره ويتراجع الملك نفسه — لم تحل دون أن تقوم الدولة بدور ما. ونعتقد أن هذه المشاعر لو وجدت اليوم بين سُرّة السعودية وأهل العلم والفضل، ولدى المسؤولين في الدولة، لكان حظ الثقافة الإسلامية أفضل بكثير مما هو الآن. إن عهد الجمال لم يكن أسوأ — في ناحية ما — من عهد البترول، إن الحجاز قد نال شهادة عراقته عندما وضع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت ثم، ولد الولادة التاريخية الحيّة عندما جعل الإسلام هذا البيت مثابةً وأمناً وقبلة، وعندما ثوى جسد الرسول في بقعة منه تنسكب فيها دموع الخشوع، وترتفع أكف الضراعة وتتعالى مشاعر الحب والولاء من مسلمي العالم أجمع، بما يجعلها روضة من رياض الجنة على الأرض، فأصول هذه البلاد تعود إلى الله والرسول وليس إلى البترول، عليه لعنة الله.

وكان الشيخ البنّا رحمه الله عظيم التقدير لما يقوم به الشيخ عبد الظاهر أبو السمح من جهد، بحكم صفته كمدير لدار الحديث، وإمام للحرم المكي، وبحكم اتصالاته بالملك عبد العزيز، خاصة بعد أن أصبح الكتاب يُدرّس في دار الحديث، ويقرأ القارئ في الصفحة الأخيرة من الجزء الثاني من "الفتح الرباني":

"وإننا لننقدم بأجزل الشكر وعاطر الثناء إلى فضيلة العلامة الأجلّ مدير دار الحديث بمكة المكرمة زاده الله تشریفاً على معاضدته إيانا، واجتهاده في نشر الكتاب وتعميم النفع به حتى صار مقرراً على طلبة هذه الدار المباركة تتوالى علينا طلبات الاشتراك فيه من الأرض المقدسة كما أن فضيلته أطرى الكتاب، وقدمه لمحبي السنة أجمل تقديم في الصحف السيارة، مما كان له أجمل الأثر في نفسنا، وحسبنا أن يجد الكتاب من فضلاء المحدثين هذا التقدير، ويلقى منهم هذه العناية، والكتاب الآن يدرس في الحرمين الشريفين مما يجعلنا نتفاعل بقبوله، ونستبشر فيه برضوان الله ورسوله إن شاء الله".

والحقيقة أن الشيخ في اعترافه بهذا التجاوب وشكره له كان يجري على أدب الإسلام في رد التحية بأحسن منها، ومن هنا فقد تكررت كلمات شكره على الصفحات الأخيرة لأجزاء المسند سواء كانت "العين أعيان جدة" السيد محمد نصيف أو تجارها الكرام أو دار الحديث أو غيرها.

مخاوف ومحاذير:

مع هذه المعونات، لم يكن الأمر سهلاً، وقد اصطدم كفاح الصاحبين بالبيروقراطية وعدم الاكتراث، وتمخضت الألف نسخة إلى مائة ترسل بعناء، وتحصل قيمتها على أقساط. وعندما قامت الحرب العالمية الثانية (٣٩ — ٤٥) اشتعلت أسعار الورق وخفض الشيخ من حجم الجزء الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر ثم اضطر للتوقف هنيهة.

وأهمّ هذا كل المطلعين على عمله، المقدرين لدوره. وكتب إليه الشيخ أبو السمح من مكة في ٣ من ذي القعدة ١٣٥٧ خطاباً جاء فيه: " ونرجو أن تختصروا في الشرح حتى يمكن إتمام الكتاب، فإن الأعمار كما لا يخفى غير مضمونة، وإذا أطلتم الشرح احتجتم إلى مال كثير وعمر طويل، والمال يمكن أن يدرك، ولكن من يضمن طول العمر، وهذا المرجوم السيد رشيد رضا ترك تفسيره ناقصاً، وكم من قائل له اختصر، وقائل له اقتصر، فلم يسمع إلا آخر حياته، ولم يدرك ما أمل فلا المطول أكمل ولا المختصر أتم، وترك كليهما ناقصاً، فلم المسألة ولا تجعل لغيرك فيها يداً، واشرح ما لا بد منه وحسبك تخريج الحديث وشرح غريبه. والإشارة إلى ما اختلف فيه العلماء والدلالة على مواضع البحث فيه فمن اكتفى بما بينته فيها، ومن لم يكتفِ رجع إلى بسط الموضوع في محله والدال على الخير كفاعله".

وكانت هذه القضية قد شغلت ذهنه قبل ذلك وكتب إلى الشيخ في ٢٢ شوال سنة ١٣٥٦ هـ: "ويرى بعض الأخوان أنكم توسعتم في الشرح حتى خاف أن يطول الكتاب، وأشفق أن تعجز النفقة عن إتمامه، ويرى آخرون أن تقليل الملازم عما كانت أولاً تخل بنظام التجليد، ووزن كل مجلد. ويقولون أن رفع القيمة لكل جزء ليبقي على ما كان من عدد ملازمه أولاً خيراً من نقص الملازم، والنتيجة على كل حال واحدة، أما أنا فكل ما ترونه حسناً فهو عندي حسن إن شاء الله".

ولم يكن الشيخ أبو السمح وحده هو المشغول بهذه القضية، فالحق أن عدم توفر المال كان تهديداً دائماً، وقد توقف الشيخ شيئاً ما قبل صدوره الجزء الخامس، فكتب أحد العلماء الغيورين على السنة هو الشيخ محمود شويل من علماء المدينة المنورة في ١٢ المحرم سنة ٥٦: "ولقد تأخر طبع الجزء الخامس، حتى وضع كل مُحِب للسنة يده على قلبه، بما آلمه منه ذلك التأخير الذي ظن أن من ورائه تأخير هذا الأثر الذي جلى للأمة سنة نبينا صلى الله عليه وسلم وجمع لها شتيت هذا المسند الذي أضاع فيه صديق هذه الأمة الإمام أحمد بن حنبل الشيباني عمره الثمين".

وتعجب الشيخ، كيف لا يفكر أحد أبناء الأمة الإسلامية في مدِّ يد المساعدة والمعونة لطبع هذا (المجهر) الإسلامي، الذي عم نوره الأفاق كلها بصدور أجزائه الأربعة الأولى: "إني لأستمطر أكف أهل الصدق والوفاء كسعادة الكريم الجواد مغازي باشا الذي حج هذا العام، وزار الروضة المطهرة، فأغدق على حيرة المصطفى ﷺ فيضاً من سماء كرمه جعلهم يهتفون بذكره. وأستمطر أكف سعادة البدر اوي باشا وسيد باشا خشبة وجلال بك محمود القيسي أعضاء مجلس النواب والسيوخ، وقد رأينا كرمهم الحاتمي أثناء حج هذا العام بمكة والمدينة، ما جعل الألسنة تلهج بذكرهم والثناء عليهم.. وبالطبع فإن أحداً من هؤلاء السادة لم يعلم بهذا النداء، ولو علم لما فعل شيئاً، فهناك فرق بين الكرم عند الحج.. وبين المساعدة على إخراج سفر علمي ثمين. ويبدو أن الشيخ شويل رحمه الله – ولعله مصري الجنسية – لم يتقدم إلى أحد من السعودية لتصوره أن المصريين أقدر على المساعدة وقتئذ.

وجدير بالذكر أن علماء السعودية لم يكونوا وحدهم الذين شغلوا بهذا الأمر فقد كتب أحد علماء مصر المشهورين وهو الشيخ أبو العيون إلى الشيخ خطاباً في ٤ / ٩ / ١٣٥٦ (٦ / ١٠ / ٤٠) يقول فيه بعد الديباجة: "سيدي – طالما فكرت في الكتابة إليكم في الشأن الذي أحرر لكم فيه هذه الرسالة حتى وفقني الله من فضله اليوم، فكان فرصة سعيدة، لنهنتكم بحلول شهر رمضان المبارك أطال الله حياتكم النافعة إلى أمثاله.

أما الأمر الذي غلب الخجل من التدخل فيه الرغبة في نشر فضلكم، وعموم النفع بكم، وتمام عملكم بالخير، فهو الإشارة على حضرتكم، بانتهاز فرصة الورق وارتفاع أسعاره الذي يعوق السير في الطبع بالسرعة العادية، زيادة على ما عرقل سبل تصريف الكتاب في أقطار الإسلام من عوائق الحرب، وانتهاز تلك الفرصة يكون إن شاء الله ببذل وقتكم النفيس في تدوين شرحكم القيم لأحاديث الكتاب المبارك، أي أنني أتمنى لو تفضلتم بتوفيق الله فسبقتم بالشرح والتدوين، ولم تنتظروا شرح الأحاديث مع طبعها أو قبيل طبعها، فحبذا لو حثتكم أنفسكم في ذلك الشرح العظيم جهد المستطاع سرعة، وإن كنتم في الطبع تسيرون على مقتضى الظروف بطناً وسرعة، حتى إذا يسر الله شئون الطبع وجدتم التأليف أمامكم معداً، فتكونون بذلك قد ادخرتم للإسلام والمسلمين من علمكم النافع، وجمعكم المفيد خير ذخيرة تحت الطبع، والله المسئول بكرمه وجوده أن يمد حياتكم المباركة، حتى تروا الكتاب كله مطبوعاً، مع شرحكم البديع طبعاً يقر عينكم وعيون الناس.. الخ."

وكتب عبد العزيز محمد باشا، وهو وزير سابق للأوقاف في ١٠ ذو القعدة ١٣٦٦ (٢٥ سبتمبر ١٩٤٧):

حضرة الأستاذ الجليل الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا

جلت آثاره، وعظمت مناقبه وكثرت مآثره، بعد التحية الطيبة والسلام العاطر هل لي أن أسألكم عما تم طبعه من كتابكم الجليل المعنون بالفتح الرباني بعد الجزء الثالث عشر وثمن كل جزء، فإني حريص على اقتناء باقي أجزائه وأرجو منكم الحرص على إتمامه، قبل مفارقتكم هذه الدار بعد عمر طويل إن شاء الله، فإن عملكم هذا عمل مفيد لم تسبقوا إليه فيما أعلم، إن كان علمي صحيحاً، وسيجزيكم الله عنه أجزل المثوبة.

والسلام عليكم ورحمة الله،،

وجاءه من أحد أفراد أسرة "مخيون" في "أبو حمص" وهي أسرة عريقة كان شبابها يرون في الشيخ رحمه الله أباً روحياً.

حضرة المحترم والدنا المٌبجل الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا بارك الله لنا في حياته ورضي عنه وأرضاه. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد.. فلم تردوا على بطاقتنا وقد كررنا لكم الزيارة فلم نحظ برؤيتكم إذ لم نجدكم بالمكتب، فرجائي أن تخبروني بما تم في المُسند والفتح وهل استمررتم في الطبع أم لا زلتم متوقفين، وندعو الله أن يبسر عليكم الاستمرار في الطبع، وعلى كل حال لا تحرمونا من بركات دعائكم ومراسلاتكم، حتى لا تنقطع عنا أخباركم الطيبة إن شاء الله.

وختاماً أكرر سلامي ودعائي أن يمنحكم الله القوة والعافية وطول العمر وحسن العمل آمين.

الخميس ١٤ من المحرم سنة ١٣٦٧

٢٧ من نوفمبر سنة ١٩٤٧

أبو بكر مخيون

بعزبة مخيون بأبي حمص/بحيرة

وأخيراً تلقى الشيخ هذا الخطاب من شخص انتهت به الأيام لأن يقوم بأول حركة مسلحة للتخلص من نظام كان يراه فاسداً.. ودفع حياته ثمناً لذلك.. تولاها الله بعفوه ورحمته:

حضرة أئينا الشيخ الجليل أحمد بعد الرحمن البنا المحترم ،،

أحييكم بتحية الإسلام الصافية النقية فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. ونحمد الله العلي القدير الذي جمعنا على محبته وربط بين قلوبنا على طاعته فمحبة الله وطاعته هما ملاك الأمر وميزان المؤمنين. ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ولقد أحببتك يا شيخنا والله يعلم منذ زمن بعيد ولقد كنت حريصاً منذ مدة على اقتناء كل ما وفقك الله لطبعه ولقد كنت دائماً أطلع ما تكتبونه بمجلتي الشهاب والمسلمون⁽¹⁹⁾.

ونحمد الله العلي الكبير على أن وصلتنا النسخ الثلاثة من مسانيد الأئمة أحمد بن حنبل والشافعي والطيالسي رضي الله عنهم، وقد أخبرنا الأستاذ قسام الـرجب، صاحب مكتبة المثنى الذي جلب لنا هذه الكتب، فإنه جلب ثلاث نسخ أخرى من كل كتاب ولقد حرصت مع أخوي اللذين اشتريا النسختين الباقيتين كثيراً من الأخوان على اقتناء هذه الكتب. وكثيراً ما كنا نجابه بأن مسند الإمام أحمد غير كامل، وحين تمامه فإنهم سيشترونه، فنحنكم، راجين لكم التوفيق، أن تسرعوا في طبع ما تبقى من هذا الديوان الكبير الذي جمع بين دفتيه كثيراً من السنن، وبذلك تكونون قد رفعت السنة مناراً عالياً يثيبكم الله عليه إن شاء الله.

وفي الختام، نرجو غاية الرجاء أن ترسلوا لنا رسالة حال الانتهاء من طبع أي جزء من الأجزاء الباقية، وبذلك تكونون قد أسديتم لنا فضلاً نشهد لكم به عند الله يوم العرض الأكبر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

٢٨ رجب ١٣٧٧ هـ

أخوكم المحب

صالح عبد الله سرية

بغداد - الكرخ - سوق الجديد

مدرسة التربية الإسلامية

السنوات الأخيرة:

كان من المحتمل أن تكون السنوات الأخيرة من حياة الشيخ سنوات هدوء ورضا واستقرار. فقد تخلص من أعباء الأبناء بعد أن كبروا وتوظفوا وتزوجوا، واستراح من الساعات وتصلحها من وقت طويل، واجتاز أزمة الحرب العالمية التي أوقفته حيناً عن النشر، فواصل إصدار أجزائه جزءاً فجزءاً، واكتسب الكتاب مع الزمن دائرة محدودة من الانتشار، ولكنها كانت تكفي مع اقتصاد الشيخ وضبطه لعملية الطبع - للاستمرار - حتى يحقق أمل حياته في أن يرى الجزء الأخير مطبوعاً، لولا أن تطورت الأمور تطوراً

(19) التي كان يصدرها الدكتور سعيد رمضان على غرار الشهاب التي كان يصدرها الإمام الشهيد رحمه الله ومتابعة لها، وكان الشيخ الوالد رحمه الله يكتب فيها، كما كان يكتب في الشهاب، عرضاً لأحد الأحاديث وشرحاً له.

مأساويًا، وأصابته — وهو بعيد عنها — في الصميم، فالعداوة التي احتدمت بين الأخوان ووزارة السعديين وصلت إلى قمته، في حل الأخوان المسلمين في ديسمبر من عام ١٩٤٨، واعتقال الألوف من أعضائها، كان منهم أربعة من أبنائه الخمسة، وإغلاق شُعبها ومصادرة أموالها، أخذت تتطور من سيئ إلى أسوأ، حتى انبعث أشقاها ليغتال ابنه البكر في ظلام الليل.

ولو كان الشيخ يكتب مذكرات لأخذنا فكرة عن اللوعة التي اجتاحتها، والحسرة التي تملكته عندما اضطرت له الليالي السود لأن يحمل بيديه جثمان ابنه العزيز الذي كان ملاً بحياته ونور بصره وأن يودعه قبره، وحيدًا لا تحضره عشرات الألوف التي كانت تشق بهتافها عنان السماء "الله أكبر والله الحمد" ولكن تحاصره أسنة حراب البوليس، ولا يعلم إلا الله وحده ما انتاب الشيخ هذا اليوم وما تلاه من أيام، وما كان يفكر فيه خلال الليالي الطويلة التي أعقبت هذا الحدث، وكم سكب من دمع مِرَّارٍ، وما هي الهموم والآلام والأحزان التي كانت تعصف به وحيدًا في مكتبه.. وبأي عين كان ينظر إلى المستقبل القاتم المدلهم. بعد أن قتل ابنه البكر واعتقل — بقية أبنائه — واضطروا إلى ترك الشقة الرحبة الواسعة. وما فرضه الحكم العسكري من إرهاب دخل الحواري والأزقة والقرى النائية و "مشط" البيوت بيتًا بيتًا وأصاب كل من له علاقة بالإخوان.

لكن الشيخ كان رجلاً مؤمنًا، كان إمامًا في علمه وفقهه وفهمه للإسلام، وفيه إذن تفيد هذه المعرفة إن لم يكن في مثل هذه الحوادث الجسام وفي مواجهة الآلام، كان الشيخ يعلم أن البلاء قسمة المؤمنين، وأن الشهادة تاج المجاهدين، فحال ذلك دون أن يتهاوى وتماسك، وأخفى ما يحتمل بين جنبيه من لوعات وسجل في دفتره العتيق "في يوم السبت ١٤ منه (أي ربيع الثاني سنة ١٣٦٨) موافق ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩ في الساعة التاسعة مساء اغتيل المرحوم حسن ابني — فهُدِّمَ بفقده ركنٌ من الإسلام — رحمه الله رحمة واسعة".

وأرسل إلينا في المعتقل خطابًا يواسينا ويوصينا بالصبر والاحتساب، ويذكرنا أن البلاء هو حظ الأنبياء، فالأولياء فالأمثل فالأمثل، وقد أخذ الأخ عبد البديع صقر — رحمه الله — يقرأ الخطاب على المعتقلين بالطور، وكان عجبه لا ينتهي من أسلوب الخطاب ودقة كتابته وعدم وجود شطب أو خلل فيه.

وأصاب مقتل الإمام البنا الأسرة بضربة لم تفق منها. صحيح أن الإمام الشهيد رحمه الله لم يكن يؤثر أشقاه بشيء، ولكنه كان للأسرة دُخرها، وفخرها وأملها. وكانت تربطه بكل فرد من أفراد الأسرة وشيجة تضرب في أعماق النفس، وصلة وثيقة من الطفولة حتى الرجولة، فضلاً عن الصورة الدراماتيكية والملابسات الإرهابية التي وقع بها هذا الخطب الجلل. من أجل ذلك فإن الشيخ الوالد لم يُعِدَّ أبدًا ما كان عليه قبله، حتى وإن كان قد استأنف العمل، كما سنرى، أما الوالدة رحمها الله فقد كان مصابها يجل عن الوصف. وأذكر أنها قبل الحادث كانت تسير بجانبها في شارع الحلمية ودقات حذائها تضرب الأرض بقوة، أما بعده فقد ظلت لمدة طويلة لا تستطيع أن تجلس إلا على عجلة مطاطية منفوخة بالهواء بعد أن أصبحت جلدًا على عظم وقد ألفت — حتى بعد خروجنا من المعتقل بعد الحادث بعام تقريبًا — أن تخرج كل يوم في موهن من الليل لتزور قبر ابنها، وعندما كانت لا تجد وسيلة خاصة للركوب، كانت تنتظر لأكثر من ساعة لظهور أول ترام يذهب إلى الإمام الشافعي، وفشلت كل محاولات إثنائها عن ذلك أو إقناعها بالانتظار حتى تشرق الشمس. أما الشقيقة فوزية فقد كان مصابها مضاعفًا إذ أصيب زوجها^(٢٠) وقتل أخوها فأصبحت مثل جلييلة

(٢٠) هو الأستاذ عبد الكريم منصور الذي كان مع الإمام الشهيد ليلة الحادث وأصابته رصاصات القنلة، وجلييلة هي أخت جساس وزوجة كليب. وقد قتل جساس كليب ونشأت عن ذلك حرب البسوس، وقتل جساس فيها. فقدت الزوج والأخ.

في الزمن القديم، وتمزقت ما بين العناية بزوجها في مستشفى قصر العيني ومواساة أمها. وكان هذا كله لم يكن كافيًا، فقد تطرقت إلى الأسرة إشاعة أن الشقيق عبد الباسط فقد بصره أثر علمه بالحادث، وكتب إلينا الوالد والشقيقة يطلبان خطابًا منه بيده ليتأكد من عدم صحة هذه الشائعة وكان الشقيق عبد الباسط رحمه الله هو أشدنا تأثرًا، وكنت الذي يواسيه لأسابيع بعد الحادث وهو يضرب في مجاهل "الطور" ويسير على غير هدى.

لا أعاد الله هذه الأيام السود.. إن مجرد تذكرها، يجعل الجلد يقشعر والعين تدمع.

* * *

كان لابد للحياة أن تسير، فتلك سنة الله التي لا نجد لها تديلاً، فاستأنف الشيخ عمله، وفي النفس ما فيها، ولعل العمل الآن أصبح سلوته الوحيدة التي يدفن فيها آلامه.. وينسى بها أحزانه، فواصل أسلوب حياته وعمله.

وكان الشيخ قد استقر بسلامك مستقل في حوش المنزل رقم ٩ بحارة الرسام، وهي حارة ضيقة في أحشاء القاهرة "الغورية"، وعلى ناصيتها مسجد الفكهاني. وكان البيت كالبوت القديمة رحبًا واسعًا وكان له حوش أو فناء متسع، وفي مواجهته سلامك مستقل يرتفع بضع درجات عن مستوى أرض الحوش. وهذا هو الذي اتخذته الشيخ مكتبًا ومخزنًا للنسخ المطبوعة من "الفتح" ولم يكن حسن الإضاءة أو جيد التهوية، ولكن هذه أمور لم تكن لتشغل الشيخ.

ومن الصباح الباكر حتى منتصف الليل تقريبًا كان الشيخ يأوي إلى مكتبه، فيجلس القرفصاء — كالكاتب المصري القديم — على مقعد عريض — هو مربع خشبي، ليس له مسند أو ذراعين، طرحت عليه حشية (ثلثه) وكان أمامه مكتبة وهو "ترجة" صغيرة احتفظ بها من أيام تصليح الساعات وجعلها مكتبًا وهي "ترجه" لابد وأن تثير الخجل في نفوس الذين يحرسون على المكاتب الفخمة ذات المحابر والورقات.. الخ، وينفقون عليها مئات الجنيهات، فعلى هذه "الترجة" المتواضعة كتبت أعظم موسوعة إسلامية تضم الحديث والفقهاء.

وكانت الكتب تحيط بالشيخ من كل جانب، وكان فيها الكثير من مطبوعات الهند، التي كانت من أوائل القرن العشرين، فقد نشرت العديد من أمهات كتب الحديث بفضل عناية حاكم ولاية حيدر آباد الدكن وكذلك ملك بهوبال، وهما من أبرز ملوك الإمارات الإسلامية في الهند وقتئذ.

وكانت مكتبة الشيخ عامرة بالمجلدات والمراجع عن الحديث والتفسير والفقهاء وبقية العلوم الإسلامية وقد وجدت بين أوراقه ورقة كتب عليها بخطه هذين البيتين:

ألا يا مستعير الكتب عني فإن إعارتي للكتب عار
فمحبوبي من الدنيا كتاب وهل أبصرت محبوبا يعار؟

وظل الشيخ من عام ٣٨ إلى عام ٤٩ يضيء مكتبه بمصباح بترول، ولكن هذا المصباح كان "نجفة"، وإلى حد ما تحفة، فقد كان "لمبة" كبيرة مستديرة لها زجاجتها الطويلة وكانت الللمبة وسط قاعدة نحاسية مستديرة، تربطها سلاسل منقوشة بثقل مستدير، كان يسمح بأن يرفع الللمبة إلى أعلى أو يخفضها إلى أسفل، وعلى ضوء هذا المصباح، ظل الشيخ عشر سنوات يعمل في "الفتح"، على أنه كان أسعد حظًا من ابن

كثير الذي ظل يعمل في المسند "والسراج ينونص" حتى كف بصره، فإن الشيخ رحمه الله أدخل الكهرباء في المكتب عام ١٩٤٩.

ولم يكن الشيخ ليبرح مَرْبُضَةً هذا إلا لأداء الصلاة في جامع الفكهاني على ناصية الحارة، أو في مكتبه إذا أحس بتعب. وكان بالمكتب أريكة "كنبة" صغيرة يتمدد عليها في بعض الحالات وقت القيلولة، وكان يؤتى له بطعامه من شفته الخاصة بالمنزل نفسه بالدور الثاني.

فإذا انتصف الليل أو كاد أغلق الشيخ مكتبه، وأوى إلى مضجعه في الدور الأعلى، وبهذه الطريقة خلص الشيخ من صعوبات "الموصلات" وما تستنفده من جهد ومال ووقت.

وكانت الحالة المالية للشيخ مستقرة، لأنه أخذ نفسه بالاعتقاد، وكان شعاره هو الحديث النبوي "ما عال من اقتصد". وقد ابتعد عن كل صور التوسع أو المشروعات التي تجمد ماله القليل أو تبعده عن متناول يده، أو تشغل فكره به، وكان يؤمن بالكتابة ويقيد كل معاملاته المالية، ويقول إن الله تعالى عوده أن لا يخذله، وأن يبسر له ثمن ورق كل جزء من أجزاء "الفتح". وكان ذلك مع مصاريف الطبع، هي المشغلة المالية للشيخ، أما الأكل واللبس وتكلفة الحياة اليومية، فلم تكن تمثل شيئاً مذكوراً. وقد كان مما يثير عجبنا أن يوجد لدى الشيخ دائماً مبلغ من المال الحاضر في أي وقت، وكنا نلجأ إليه عندما تمس بنا حاجة فنقترض منه، وعندما توفي إلى رحمة الله، كان دفتره يضم صفحة لكل ابن من أبنائه بها حسابه، وكانت كلها مدينة له. وكان قد ادخر قبل أن يموت بفترة قرابة مائتي جنيه في صندوق بريد (بدون فوائد طبعاً) وقد توكل على ذات يوم ليصرفها من مكتب بريد الأزهر، ليعطيها للشقيق عبد الباسط عندما أمت به أزمة خانقة. وقبل أن يموت أشار إلى مكان مبلغ من المال ليصرف منه على تجهيزه، وكان في هذا كالألدة رحمها الله، فكل منهما ترك ما ينفق على تكفينه وتجهيزه وجنازته .

وكما قلنا في المقدمة، فإن الشيخ لم يكن ليزور أو يزار إلا في المناسبات، ولم يكن يقرأ الجرائد، أو يستمع إلى الراديو، وغني عن القول أنه لم يذهب في حياته إلى سينما أو مسرح، كما لم يخرج طوال الثلاثين عاماً الأخيرة من حياته لنزهة أو لرؤية متحف أو حديقة.. الخ. ولعله رأى الأهرام أول قدمه القاهرة، وقد أمضى حياته القاهرية كلها في مثلث السيدة — الخليفة — الدرب الأحمر.

وكان الشيخ يدخل نوعاً من السجاير الرخيصة، وفي بعض الحالات كان يقسم السجارة قسمين، كما كان يتناول عدداً من فناجين القهوة، وكان في متناول يده وابور سبرتو وعدة القهوة، وقد قيص الله له من كان يعينه في هذا، إذ كان في الحوش، رجل يعمل في صناعة الأحذية هو "الأسطي" أحمد الذي تطوع بخدمة الشيخ. فكان يحضر "الخبز" ويغسل فناجين القهوة الخ.. رحمه الله، فقد توفي بعد وفاة الشيخ. ونعتقد أن تدخين السجاير وشرب القهوة إنما كانا أقل ما يمكن أن يفعله الشيخ لدفع الملل. الذي كان ولا بد يستبد به، عندما تتوالى الساعات، ساعة بعد أخرى، وهو منكب على عمله، ويتكرر هذا يوماً بعد يوم. في مكتب لا تدخله الشمس، ولا يظفر بتهوية. وقد قلنا أن الشيخ رحمه الله لم يكن مجرداً من الحاسة الفنية في أيامه الأولى، وكان مكتبه في المحمودية على شاطئ النيل، يطل على منظر من أجمل المناظر تحفة الخصرة ويغسله الهواء وتجففه الشمس، ولعله في إحدى بدوات الشباب أمل أن يكون له "كارتة" يجرها حصان مطهم، ويقطع بها طرقات المحمودية.. وكانت تلك هي أعظم وسيلة للاستمتاع وقتئذ، ولكنه طرح كل هذا، وأثر أن يتبذل للعلم في هذا المكتب المقبض الذي لم يكن ليطبق البقاء فيه ساعات — وليس أياماً — أحدٌ غيره.. فلا

أقل من أن يدخن بعض السجائر.. أو يشرب بعض القهوة ولولا إيمانه برسالته، وما كان يلمع وسط ظلمات التنكر والإغفال، من علامات التقدير.. لما استطاع الشيخ أن يواصل عمله في هذه الأوضاع.

وقد عثرنا بين أوراقه على خطاب من أحد شيوخ مكة يطلب منه "الإجازة وترجمة حياته الحافلة" فأرسل الشيخ خطاباً جاء فيه:

الأخ الصالح سليمان بن عبد الرحمن الصنيع حفظه الله ونفع به أمين ،،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد، فقد تسلمت خطابكم من فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد الرازق حمزة، وامتثالاً لأمركم، وحسن ظنكم بي، كتبت الإجازة بخطي وسلمتها لحضرتة، وتصلكم إن شاء الله تعالى وأنتم متمتعون بالصحة والعافية. عممَّ الله النفع بكم وبارك فيكم. أما ترجمتي "الحافلة" فلا تكون في حياتي ولا من صنع يدي" (٢١) ٥ شعبان ١٣٦٥ / ٤ يوليو ٤٦.

وهذا الخطاب يصور أدب الشيخ وتواضعه الحقيقي، وفي الوقت نفسه فإنه يكشف عن أنه كان يعلم حق العلم قدر نفسه، وقدر العمل العظيم الذي يقوم به، ولكنه كان يتقرب إلى الله بهذا، فلا يجد فيه مبرراً لزهو، أو فخرٍ أو استعلاءً. وقد قرأنا على غلافٍ لأحد الأصول بخطه هذا التنبيه لـ "أسطى المطبعة": "الرجاء عدم تكسير الورق كثيراً والمحافظة على نظافته بقدر الإمكان، ولا يصح أن يكتب عليه بالإنجليزي كأنه لعبة، لأن هذه الأصول ستُجَلد ويحتفظ بها جيداً لأنها خط المؤلف (٢٢)".

ورغم العقوق والنكران من "المؤسسة المشيخية" في الأزهر، والأوقاف الخ.. فإن الشيخ لم يُعَدَم من يُقدِّره قدره، ومن يكتب على مطروف مجلة "المسلم" التي ترسلها إليه العشيرة المحمدية :- "مولانا الجليل المبارك العارف بالله سيدي الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا".

وكان الشيخ يستخدم في كتابته "الريشة" والمحبرة وأنواعاً مختلفة من "السن". ولكنه عند ظهور أقلام الحبر استخدم أنواعاً منها، وكانت أصابعه الطويلة الرشيقة تمضي هوناً على الورق فتكتب بخط دقيق، ولكنه واضح، وكان يكتب المتن بخط كبير نسبياً، وكان يرقمه ويشكله بالحبر الأحمر. أما الشرح فكان يكتبه بخط دقيق للغاية بحيث أن نصف الصفحة كان يستوعب أربعين سطراً لا يتخللها شطب واحد، ويمكن قراءته على دقته، كما كان في كثير من الحالات يملأ هوامش الصفحة أيضاً.

وكان الشيخ البنا أقرب إلى الطول منه إلى القصر، وإلى النحافة منه إلى البدانة وإلى البياض منه إلى السمرة.. وكانت يدها طويلتين وأصابعه رشيقة، ناتئ الوجنتين، مقرون الحاجبين واسع الشدقين أشم الأنف، وكان يلبس الجبة والقفطان ويضع العمامة على عادة شيوخ مصر.. وكانت صحة الشيخ بصفة عامة حسنة، ولا أذكر أنه زار طبيباً أو أن طبيباً زاره قبل مرضه الأخير. وقد أجرى عملية فتق في مستشفى (الدمرداش) في ٤ يونيو سنة ٣٤، أجراها له طبيب إنجليزي ماهر، وبعد عشرين سنة (أي سنة ١٩٦٥) كتب الشيخ في دفتره "أصبت بفتق في الجهة اليمنى والحمد لله على كل حال" وألف أن يلبس حزاماً خاصاً. كما أنه في السنة السابقة (١٩٥٣ - ١٣٧٣) خلع أسنان الفك الأعلى وركب طاقماً. ولكنه باستثناء ذلك لم يكن يشكو شيئاً.

(٢١) لعل هذه الترجمة التي قمنا بها بعد وفاته بثلاثين عاماً أن تكون تحقيقاً لنبوءة الشيخ رحمه الله.

(٢٢) وقد جلدتها الشيخ رحمه الله كل جزأين في مجلد حتى الخامس عشر.

وكان من عجيب أمر الشيخ أنه لم يزر طبيب عيون، وأنه كان يختار نظارته حسبما اتفق، ثم لا يخلص منها إلا إذا أصابها عطب ليختار أخرى بالطريقة نفسها.

وإذا قدرنا الحياة الروتينية والحبسة في المكتب المقبض ليل نهار، والوحدة الكئيبة التي كان يعيش فيها والسجاير والقهوة، وعدم عنايته خاصة بالغذاء، وما تعرض له من شدائد ومحن في الثلاثينات ثم النكبة المدلّمة باغتيال ابنه المأمول، وما سحبتة من آلام وهموم على بقية حياته وأن هذا الحدث قد أصاب أسرته كلها بضربة قاضية أخرت تقدمها.. نقول إذا قدرنا هذا كله لأدركنا أن الشيخ رحمه الله كان يدافع كل هذه القوى الهدامة المبيّسة لكي يحقق أمله العظيم في إتمام "الفتح". كان الفتح هو الذي يمسه على قيد الحياة، ويعطيه القوة التي استطاع أن يغالب بها عوامل كان يمكن أن تجعل غيره يتهاوى قبل الوقت الذي أسلم فيه الشيخ الروح.

وحتى الأيام الأخيرة من عمر الشيخ لم يبأس، أو يتوقف عن العمل، وكان قد وصل إلى منتصف الجزء ٢٢ وهو عن التاريخ، ولما أحس بهجوم المرض، حاول أن يعرفني بأسرار عمله، وقال أن الجزء ٢٢ عن التاريخ، وأن شرحه لن يحتاج إلى فنية وأستاذية كبيرة، ونصحتني بالرجوع إلى "البداية والنهاية" لابن كثير لأن تاريخه يعتمد على الحديث، كما يتضمن التخرّيج، وهو محك الخبرة والأستاذية (٢٣).

ياصاحب "الفتح" كم في "الفتح" من دأبٍ يكسبك فخرًا على الأجيال والسلفِ

ولم يكن ذاك كافيكُم، فجدت لنا بمرشد الدعوة السّمحاء في الخلفِ

الله أكرمكم ، والله ألهمكم أنعم بكم، وبمن أودعت في النطفِ

ابنكم جمال

(23) بعد أن مات الشيخ رحمه الله أهمنا أمر مواصلة الطبع وكتابة الشرح، ولم تأمن الأسرة كلها نفسها، وأرادت أن يقوم بذلك أحد علماء أو شيوخ الأزهر، فاتصلنا بكثير منهم، وشاهدنا العجب من رفض البعض، ومطالبة البعض الآخر بأجر بحساب الملزمة وقال أحدهم أن هذا العمل يتطلب "صبر أيوب، ومال قارون.. وعمر نوح!" واعتذر. وأخيرًا اهتدينا إلى الشيخ محمد عبد الوهاب البحيري أستاذ الحديث بالأزهر، وهو من بلدنا، وممن يقدرّون الشيخ تقديرًا خاصًا، فقبل القيام بشرح وتخرّيج أحاديث نصف الجزء الثاني والعشرين متطوعًا، ووضعنا أنفسنا في خدمته، وقام بهذه المهمة خير قيام، أثابه الله. ولكنه اعتذر عن القيام بالباقي لانتدابه للمغرب. وكونت الأسرة لجنة صغيرة من بعض المعنيين قاموا بالعمل التمهيدي ووقع على كاتب هذه السطور غريبتنا، ومراجعتها ووضعها في قالب الأخير، في ضوء توجيه الشقيق الأستاذ عبد الرحمن بملاحظة الاختصار، وعدم كتابة كلمة ليست لها ضرورة لأن الخطأ يأتي مع الإسهاب.. وقد تم العمل والحمد لله وصدر الكتاب في ٢٤ جزءًا. ومن المفارقات أن هذه الموسوعة التي تطلب طبعها من الشيخ وأبنائه أكثر من ثلاثين عامًا، طبعت "حالا" بطريقة الأوفست في بيروت دون أن نعلم وجاعنا الصرخ بذلك، ولم نستطع أن نفعل شيئًا، ولكن الأستاذ سيف الإسلام = ابن الإمام الشهيد استطاع أن يطبعه بعد ذلك مرتين! وكان الشيخ رحمه الله يقول — وهو يكافح وسط المصاعب لإصدار الكتاب جزءًا بعد جزء أن هذا الكتاب. سيكفي "الولد وولد الولد" وصدق الشيخ. فقد اعتمدنا عليه أنا والشقيق عبد الباسط — في أزمتنا الستينيات، ثم جاء دور ولد الولد في الثمانينيات.

الفصل الثاني

عرضاً وتحليلاً لخطابات الإمام الشهيد إلى أبيه

تمهيد:

كُتبتُ عن الإمام الشهيد رحمه الله كتب كثيرة. وهو يستحق ما هو أكثر، ولكنها قلما تعرضت للحياة الشخصية والخاصة له. والمرجع الوحيد والموثوق به هو ما كتبه الإمام الشهيد نفسه في (مذكرات الدعوة والداعية) الذي ألهمه الله أن يكتبه ليسد هذه الثغرة. ومع هذا فإن (الدعوة) فيه تراحم (الداعية) وترحمه، ويظل من حق الجمهور العريض أن يعلموا الكثير عن شخص هذا القائد الذي جدد الدعوة الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري (والعشرين الميلادي) وأعطاهما ما هي عليه من حيوية بعد أن كانت تنتقع في الزوايا والتكايا، لا يحملها إلا الوعاظ والقصاص، ولا تعني إلا بالطقوس والشكليات.

ونعلم أن الإمام الشهيد رحمه الله كان قد خلف (يوميات) غير منشورة، لعل بعضها لا يزال باقياً لدى نجله الأستاذ أحمد سيف الإسلام، وإن كانت الأحداث التي أعقبت حل الأخوان في ديسمبر ١٩٤٨ وما أملاه الإرهاب من تصرفات، رآها أصحابها مما لا مناص عنه، قد ذهبت بكثير من أوراق الإمام. وقد قُدر لنا أن نطلع – بالصدفة – على بعض يومياته فوجدنا أنها كلها تدور حول رحلاته وما كان يلاقي فيها، إذ لم يكن من دأب الإمام الشهيد أن يكتب عن الخصوصيات، كما قد يرى البعض أنه لا يجمل بأحد أن يسعى للتعرف على الجوانب الخاصة في حياة الآخرين، وأنه قد يكون نوعاً من الفضول المذموم.

ولكن هناك وجهة نظر أخرى ترى أن الإسلام يفترض في قاداته التأدب بآدابه، وأن كل تصرف يقومون به وبين أنفسهم، أو ما بينهم وخاصة أهلهم، يمكن أن يهدي الناس إلى التصرف السليم في هذا المجال. وإن هذا التصور إسلامي عريق وكان في أصل معرفتنا عن الكثير من الشئون الخاصة للرسول ﷺ فنحن نعلم أنه كان يحب عائشة ويعلن حبه لها، ونعلم ماذا كانت تقول له في ساعة الرضا وماذا تقول في ساعة الغضب، ونعلم أن الرسول ﷺ كان يفسح لها فرصة رؤية الحبشة يلعبون حتى تمل هي، ونعلم أنه كان يثني ركبته لتصعد صافية عليها لتركب ناقته، بل نعلم ما هو أخص من هذا ونعلم أن زوجته كن يرين من واجبهن إعلان ذلك وأن المحدثين حملوا عنهن ذلك، ورووه لبقية الأجيال لإفادة المسلمين به، وليكون لهم في رسول الله أسوة حسنة.

فإذا كنا نتناول بعض جوانب الحياة الخاصة للإمام الشهيد، فذلك بفكرة إفادة جمهوره بها، ولجعلهم يتفهمون قائدهم، ويتعرفون على العوامل الخاصة التي أراد الله لها أن تكون معينة له في دعوته.

* * *

لعل أول ما يلفت الانتباه أن الإمام الشهيد رحمه الله أمضى طفولة سعيدة بفضل حب أبويه له، وجمال وسعة البيئة التي أمضى فيها هذه الطفولة، كان الإمام الشهيد هو الابن البكر لأبويه، والابن البكر يولد عادة والأبوان في مقتبل العمر وزهرة الشباب، ويكون ثمرة لأولى التجارب الجنسية، وما تصطبغ به من

انفعال و عرامة وحب، وما أن يولد حتى يصبح هو ثمرة هذه العاطفة والتجربة، ويستأثر وحده بكل عواطف ومشاعر الأمومة والأبوة، دون أن ينافسه فيها ابن آخر، ويتمتع بكل ما فيها من حب وإعزاز، وبوجه خاص من الأم التي تمنحه كل صدرها طيلة عامين كاملين، يتحقق لها فيهما الإشباع العاطفي، فلا يحس عندما يكبر بنقص أو جوع، وتتعكس محبة الأبوين على نفسية الطفل، وتغرس فيه بذرة الرضا والثقة والاعتزاز والإقدام قدر ما تنفي التعقيد أو الإحباط. وقد تحدّث فرويد عن هذه الظاهرة في الابن البكر، ونجد في الإمام الشهيد مصداقاً لها، إذ نجده بين أترابه الأطفال في ألعابهم في محل القائد أو الرئيس، ونجد والده يعتمد عليه في كثير من المهام التي يقوم بها بنشاط وكفاية ودون أي تذمّر، كما ستوضح ذلك المجموعة الأولى من خطابات، وكان من الأبيات المحببة إليه والتي تصور نفسيته بيت طرفة بن العبد:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أني عنيتم فلم أكسل، ولم أتبلد

ومن هذه النقطة — نقطة البداية تتشأ وتتوالى مجموعة من الملابس، كلها تتسم بالتوفيق والاتساق، والسير في الاتجاه الذي أراده الله له. وكان من مظاهر هذا أن تأخذ مشاعر الأب والأم نحوه صورة التكامل، وليس التعارض كما يحدث في كثير من الأسر، عندما يكون للأب رأي في مستقبل ابنه، يختلف عن رأي الأم، ففي حالة الإمام الشهيد نرى دور الأم يكمل دور الأب.

فقد أراد الوالد رحمه الله لبكره أن ينشأ نشأة إسلامية حقيقية، وأصر أولاً على أن يحفظ القرآن، واستكمل له الكثير من جوانب الثقافة الإسلامية، في هذه السن المبكرة، ثم عهد به إلى الشيخ محمد زهران الذي كان شيخه الأول وهو — كما قلنا — كيف وهذه الحقيقة نفعت الابن، كما نفعت أباه من قبل، عندما تتلمذ في كتاب شيخه كفيف، ثم لما تتلمذ على يدي الشيخ زهران الكفيف أيضاً.

وقد كانت أول نبذة في كتاب (مذكرات الدعوة والداعية) هي عن (مدرسة الرشاد الدينية) التي كان يُعلّم فيها الشيخ زهران أطفال المحمودية، وكيف أنه تعلم منه، وإن لم يدرك ذلك وقتئذٍ "أثر التجاوب الروحي والمشاركة العاطفية بين التلميذ والأستاذ" فهل هناك درس أنفع وأعمق من هذا الدرس لمن سيكون مدرساً؟ سواء للتلاميذ أو للجماهير.

وفي مدرسة الرشاد تعرف الطفل على عالم الكتب واطلع على (المكتبة) التي كانت أكبر من مكتبة أبيه ولعلها أكبر مكتبة في البلد ولم يكن هذا ليدخل في إطار الدراسة العادية للأطفال ولكن الله تعالى أراده للإمام، ورتّب أسبابه تلك.

وفي المرحلة الدراسية اللاحقة نرى دور الأم يكمل دور الأب فقد تمسكت الوالدة رحمها الله بضرورة أن يستكمل ابنها تعليمه حتى أعلى مستوى، وعندما ضاقت موارد الأسرة باعت (كردالها) الذهبي وفي مرحلة لاحقة — ولاستكمال التعليم أيضاً باعت (سواريتها) وكانت مضفرة ثقيلة من الذهب (البندقي) كما يقولون أي أنها من الذهب الخاص عيار ٢٤.

بهذه العاطفة القوية كانت الوالدة تحيط ابنها البكر، وقد حدثتني يوماً كيف كانت تطوقه بقوة وهو طفل رضيع، عندما اضطرت لأن تعبر جسر (حلق الجمل) وكيف كان خوفها الأكبر عليه لا عليها.

وكانت الوالدة حرمها الله تتصف بالعناد وقوة الشخصية، وقد ورث الإمام الشهيد كثيراً من صفاتها الخلقية من الحاجبين المفروقين والعيون والأنف، ولم يشاركه في هذه الوراثة من أخوته سوى الشقيق عبد

الباسط رحمه الله.. أما بقية أخوته فقد ورثوا وجههم عن أبيهم، وكان مقرون الحاجبين عالي الجبهة، ناتئ الوجنتين تختلف قسبة أنفه ومارنه عن أنف الوالدة. وكان الإمام الشهيد أقرب إلى القصر منه إلى الطول، وكانت تلك من صفات الولادة، أما الوالد فقد كان أقرب إلى الطول منه إلى القصر.

وكان من عناصر الطفولة السعيدة للإمام الشهيد أنه ولد في (المحمودية) حيث النيل أجمل وأوسع ما يكون وحيث الحقول، و"النجيل" والأراضي البور المتسعة الفسيحة التي سمحت له باللعب والجري، وممارسة وسائل من اللهو الجماعي التي لا تتسع لها شوارع المدينة أو أزقتها، فاستراحت عينا الطفل على النيل، وعلى السماء، فلم يصب بقصر النظر رغم مطالعته، وأعان الهواء النقي والشمس الساطعة على أن تكون صحته حسنة، وأن لا تهاجمه أمراض كانت وقتئذ منتشرة وفاشية. كما نمت الألعاب الجامعية التي كان يمارسها الروح الاجتماعية له، وأبعدت عنه الصفة الانطوائية التي تعلّق بالأطفال الذين لا تسمح لهم ظروفهم بالانطلاق، وممارسة الألعاب الجماعية بطريقة طبيعية غير متكلفة.

* * *

وعندما يجاوز الإمام الشهيد مرحلة الطفولة، ويبدأ الصبا فإن ملابس التوفيق تتابعه، وكأنه ملاك حارس تقود خطوه في المسار المطلوب دون انحراف.. وهكذا يدخل الإمام الشهيد مدرسة المعلمين الأولية، وتحقق له هذه الخطوة عنصرين كانا لازمين: الأولى التجربة الصوفية.. والثانية أنها فتحت الباب أمام دخول دار العلوم.

فقد كان يمكن أن تكون مدرسة المعلمين بدمنهو كأي مدرسة أخرى دون المحطات المعينة التي أحاطت بها فتفقد إضافتها، ولكنها في حالتنا كانت مقر ضريح الشيخ السيد حسنين الحصافي شيخ الطريقة الأولى، والتقى فيها بشيخها السيد عبد الوهاب الحصافي، وتلقى عنه الطريقة، واستفاد من الأساليب التربوية الصوفية، وأدب الطريقة ما أثر فيه وما استفاد منه. وقد خاض الإمام الشهيد رحمه الله التجربة الصوفية حتى أعماقها من تهجد وصيام وصمت وعزلة وزيارة الأولياء.. الخ. وكما أنهم في التحليل النفسي يفترضون فيمن يمارسه أن يكون قد حلل نفسه أولاً حتى يستطيع تحليل نفوس الآخرين، فقد كان لا بد أن يعاني الإمام الشهيد هذه التجربة حتى يلم بها تماماً ويضيفها إلى معارفه.

ومع أن الإمام الشهيد – رحمه الله – تأثر تأثراً عميقاً بالتجربة الصوفية إلا أن الصوفية لم تمتلكه أو تستحوذ عليه تماماً لأمرين:

الأمر الأول: أن توجيه والده ودراسته على يدي الشيخ زهران كانت سلفية، فأوجد هذا نوعاً من التوازن حال دون أن ينزلق في متاهات التصوف، أو أن يلتزم بشارتها كطريق، ومن هنا رأينا صوفياً صغيراً في الرابعة عشر من عمره، يرخي عذبة بين كنفه، ويضع نعلين في قدميه، وقد كانت هذه رموز السلفية حيناً ما. وعندما أسس الإمام النواة الأولى للأخوان المسلمين كان ازدواج المعنى الصوفي بالحفاظ السلفي من عناصر التجديد والكمال التي لم تكن معروفة وقتئذ. فقد كانت هناك هيئات صوفية دون أن تكون سلفية كمختلف الطرق الصوفية، أو سلفية دون أن تكون صوفية كالجمعية الشرعية والهيئات الوهابية. وكانت الأخوان سلفية الأطر صوفية العاطفة.

ولا يمكن الادعاء بأن الثقافة الإسلامية التي حصل عليها الإمام الشهيد في طفولته لم تكن تسمح له بهذا التأصيل، لأن هذه الثقافة مكنته من أن يعلم أن الصلاة بين السواري مكروهة، وهي قضية نسيها شيخه، وشيخ أبيه – الشيخ محمد زهران وأخذ يتقصّها عندما وصله تنبيه جمعية الأطفال التي كونها الإمام الشهيد مع أتراب له "انظر مذكرات الدعوة والداعية" وقد انتشرت بفعل ضحالة المستويات الثقافية، وأمّية المجتمع اليوم – مقالة تستبعد أن يستوعب الأطفال مثل هذه الثقافة، والحقيقة أن الأطفال يكونون أكثر استعدادًا من الرجال – لتلقي المعلومات واستيعابها. وما اكتسبه الإمام الشهيد رحمه الله فترة الطفولة كان له أثر بعيد، ليس فحسب على فترة التصوف، بل وما بعدها أيضًا.

والأمر الثاني: أن شدة انغماسه في الشعائر العبادية والمجاهدات الصوفية لم يكن – بالكامل – صادرًا عن إيمان بأن هذه الصورة المغرقة هي الصورة العادية أو الطبيعية في السلوك، ومن ثم يفترض أن تستمر وتتمارس أبدًا. إن جزءًا من شدة الانهماك والانغماس يعود إلى فورة المراهقة التي زوّدت صاحبها بطاقة إضافية، كان لابد من امتصاصها بهذه الأساليب والمجاهدات، بحيث لم تعد تزعجه، أو تلح عليه حتى اجتاز مرحلتها الحرجة. ولعل الإمام الشهيد رحمه الله طبق هذا الدرس على شباب الأخوان عندما كان يعهد إليهم بممارسات ومجاهدات وأعمال تستنزف الطاقة الإضافية التي تزودهم بها الغريزة في هذه السن، حتى ينتهي بهم إلى الزواج وبذلك يخلصون من التعرض للأزمات العاطفية، أو النزوات الجنسية⁽²⁴⁾.

* * *

وحدث وقتئذ حادث دلّ على أن الإمام الشهيد رحمه الله مسوق إلى قدره، فبعد أن أتم الدراسة تبدّى خيال دار العلوم، وعزمت مجموعة من زملائه على التقدم إليها، وفي الوقت نفسه عينه المجلس المحلي للبحيرة مدرسًا في "خربتًا". وكان كل شيء يوحى بقبول هذا التعيين، فهو يتيح له أن يكون معلمًا ويحقق له الاستقلال، وقد يمكنه من إعانة الأسرة وبيقيه قريبًا من المحمودية وما حولها، كما كانت تتملكه وقتئذ مشاعر الزهد في المناصب والعزوف عن الشهادات، وأن الحرص عليها فيه شبهة الإقبال على الدنيا، والتمسك بمظاهر الجاه والثراء وهي حالة نفسية تتفق مع المشاعر والأحاسيس الصوفية التي انغمس فيها وقتئذ وبوجه خاص بعد قراءة "الإحياء" للغزالي والتأثر به، وكاد الإمام الشهيد رحمه الله أن يستسلم لمشاعره تلك، فلم يستذكر ما يؤهله للتقدم للقسم العالي بدار العلوم، لولا أن وضع الله في طريقه رجالًا كان التقدير متبادلًا بينهما واستطاع بلباقة أن يحمله على التقدم.

ومرة أخرى فإن دار العلوم وحدها هي التي كان يمكن أن تخرّج الداعية الإسلامي المطلوب، لأن الدراسة الأزهرية لها طريقة متعسفة تقليدية محدودة، ودار العلوم هي الوحيدة التي تجعل دارسها متمكنًا في اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية، إلى جانب حظ غير قليل من علوم التاريخ والاجتماع.. الخ.

وهناك وقائع أخرى تؤكد ما ذهبنا إليه، من أن عناية الله كانت تهيئ المسار للإمام الشهيد، فهذا القسم العالي لدار العلوم كان سيُلغى في العام التالي، ولو لم ينتهز الإمام الشهيد هذه الفرصة لاستحاله عليه دخول

(24) ولكن البعض أبدى ملاحظة أن هذا الأسلوب – وإن نجح في تحقيق غايته – فإنه تم على حساب حق الشباب، في قدر من الاستمتاع، وأن حرمانهم هذا عقدٌ نفسيّتهم إلى حد ما، كما أنه قد يجعل من الزواج نهايةً للحماسة للدعوة.
"من لم يطببه الشباب فدأؤه حتى يغيّبه بغير دواء" (شوقي)

دار العلوم، وصاحب الإمام الشهيد توفيق غير مألوف في الكشف الطبي والامتحان التحريري، وأخيراً فإنه عندما دخلها كان يجب أن ينجح بتفوق حتى يضمن التعيين، لأن الوزارة لم تعين من الناجحين إلا خمسة أو ستة؛ فعندما جاء ترتيبه الأول بين الناجحين فإنه ضمن التعيين، وقطع على (الوساطات) التي كان يمكن أن تؤخر توظيف الثالث أو الرابع.. الخ. فتحقق التعيين، وجاء هذا التعيين في الإسماعيلية التي لم يطلبها أو يستشعر نحوها عاطفة خاصة من حب أو كره، لأنها كانت هي المهد الأمل لظهور دعوة الأخوان.

ويحدث أن تحكّم الظروف على الناس بأن يحترفوا مهناً لا يحبونها، لأنها لا تتفق مع قابلياتهم وملكاتهم؛ فيشقون بهذا وتتشتت جهودهم ما بين هواية وحرقة، ولكن الإمام الشهيد رحمه الله أراد أن يكون معلماً ومعلم (صبيان) على وجه التحديد، وتلك مهنة لم تكن الطلبة (بضم الطاء وسكون اللام) التقليدية للطموحين من الفتيان الذين يجدون في (المحاماة) أو (الطب) أو (الهندسة) الطريق الموصل للمناصب العليا والثروة والشهرة. وكانت مهنة التدريس بالذات مهنة مُتعبة، وصورَ مثل عربيّ جريرتها على شخصية المدرس. ولكن الإمام الشهيد رحمه الله كان يرى في التعليم سبيلاً للهداية التي حث عليها الإسلام، وأن تعليم الصغار تأهيل لتعليم الكبار، وهذا واضحٌ تماماً من موضوع الإنشاء الشهير الذي كتبه قبيل تخرجه رداً على سؤال (أشرح أعظم آمالك بعد إتمام دراستك.. وبين الوسائل التي تعدها لتحقيقها) وبلور فيه الإمام الشهيد رسالته العامة والخاصة؛ فحققت له دار العلوم ما أراد، فأصبح معلماً وحقق له التعليم أيضاً ما أراد، وقدم إليه خبرات ثمينة ساعدته في (تعليم الكبار)، واكتساب الجماهير، منها الأسلوب التربوي الذي أخذته الدعوة، ومنها القدرة الفائقة على تذكر الوجوه وحفظ الأسماء، وهي ملكة يمكن أن تكون من الملكات الشخصية له، ولكن لا بد أن ممارسة التعليم في الفصول قد نمتها وعمقتها.

وبالإضافة إلى هذا الدور العام للإسماعيلية فإنها كانت هي التي قدمت للإمام الشهيد الزوجة الملائمة تماماً لظروفه ودعوته، وهي واقعة – وإن كانت خاصة – ولكن لها انعكاساتها على شخص الداعية وبالتالي على الدعوة.

وكانت الزوجة التي وقع عليها اختيار الوالدة رحمها الله (وهي بالمناسبة الوحيدة التي اختارتها الوالدة. أما زوجات بقية أبنائها فلم يكن لها دور في ترشيحهن) شابة مديدة القامة، بيضاء البشرة، ذات طبيعة طيبة وفطرة مستقيمة، وعلى جانب كبير من الخفر والحياء، وكانت تعلم أنها تتزوج داعية تتحكم فيه ظروف الدعوة، ولا تدع له – أو لها – حرية أو خياراً.. فكيفت نفسها طبقاً لذلك وحققت لزوجها الاستقرار العاطفي الذي مكّنه من أن ينطلق لدعوته محصناً من فتنة النساء – وما أكثر ما اعترضت طريق الدعاة – دون أن تهاجمه نوازع الشهوات، أو تعكر صفوه مشاغبات الزوجات. ولربما قيل أن الإمام الشهيد رحمه الله كان يمكن أن يجد زوجة أكثر جمالاً ومالاً وثقافةً في غير الإسماعيلية أو حتى في الإسماعيلية نفسها (كانت بالفعل موجودة) ولكن ما يُعدُّ مِيزة بالنسبة لآحاد الناس قد لا يكون كذلك للقادة والدعاة؛ فلو كانت الزوجة ملكة جمال لكان لهذا أثره في استحوازها على زوجها، وهو أمر لا تتسع له الدعوة التي لا ينتطح فيها عزان، ولو كانت أكثر مالاً لساندت الدعوة. وقد كانت أسرة زوجة الإمام ميسورة الحال وساندته في بعض المناسبات، ولكن من الخير دائماً للدعوات أن تعتمد على نفسها، وأن تتحمل فاقتها، وأن تعتمد على جيوب أعضائها، وليس على المعونات كائنة ما كانت، أما الثقافة، فما كان الفهم التقليدي في الدوائر الإسلامية لدور المرأة ليسمح بنشاط يمكن أن تقوم به في مجال الدعوة ولو دفعته ثقافتها الرفيعة لأن تقوم بدور بارز في الدعوة، لفتحت ثغرة يمكن أن تؤتى منها الدعوة. كانت الاشتراطات المثلى في زوجة الداعية الإسلامي هي

ما افترضه الرسول "إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته". وهذا ما تحقق في الزوجة التي قدمتها الإسماعيلية للإمام الشهيد.

ولعلنا لا نجاوز الحقيقة، إذا قلنا أن عنصر التوفيق، ذلك النجم الهادي والملاك الحارس للإمام الشهيد في مسيرته كان وراء كل أحداث حياته منذ الميلاد، ولم يتخل عنه حتى النهاية المأساوية، التي لم تكن نهاية حياته، قدر ما كنت قمة كفاحه، وذروة رسالته. إن (الشهادة) هي أسمى ما يمكن أن يطمح إليه المؤمن، وقد حفظ لنا تاريخ بعض الأئمة ما قالوه لأبنائهم؛ عندما جاءهم رسول السلطان ليبطش بهم (ماذا بقاء أبيك في هذه الحياة بعد أن بلغ كذا من العمر) أو (أن أباك أهون من أن يقتل في سبيل الله)، وكانت الصيغة التي صور فيها الإمام الشهيد أسمى أمانى الأخوان (الموت في سبيل الله أسمى أمانيا). وقد حقق الله تعالى له أسمى الأمانى فأصبح "الإمام الشهيد" وكُللت دعوته بأكاليل الشهادة، وأصبحت دعوة قدّستها دماؤه بعد أن عمّقتها جهوده، وانطبق عليه وعليها الأثر (حياتي خير لكم ومماتي خير لكم).

الخطابات:

كان الشيخ الوالد رحمه الله يحتفظ بخطابات ابنه بصورة حسنة، ومنتظمة وبهيئة تصونها. وكان عادة يحفظ كل خطاب في ظرفه، وقد يكتب على الظرف وصل يوم كذا. ولكنها تعرّضت عندما عبثت الأيدي بأوراق الشيخ لصور من التلف فنالت الرطوبة منها، وأكلت الأرضة أطراف بعضها، بينما بهتت خطوط بعضها الآخر، وظلت البقية لحسن الحظ – في حالة حسنة.

وقد قسمنا هذه الخطابات هنا إلى ثلاث مجموعات حسب تاريخ ورودها، فالمجموعة الأولى سنطلق عليها مجموعة (العُطف) لأنها أرسلت من العطف عامي ٢٦ و ٢٧. والمجموعة الثانية مجموعة (الإسماعيلية) وهي تغطي الثلاثينيات. والمجموعة الأخيرة وهي في (الأربعينيات)، وهي لا تدخل بدقة في رسائل حسن البنا (الشاب)، ولكننا أوردناها بالإضافة إلى أهميتها الذاتية لإثبات عنصر كان هو محور ترجمتنا لحياة الإمام الشهيد، وهو (الاستمرارية)؛ فنحن عند مقارنة آخر خطاب بأول خطاب – وبينهما قرابة عشرين عامًا – لا نجد فرقاً في الخط أو طريقة الكتابة أو أسلوب الخطاب.

وقد وجدنا بين أوراق الشيخ بعض وثائق أخرى تتعلق بالإمام الشهيد أثبتناها، مثل استقالته من خدمة وزارة المعارف، ونقله من مدرسة إلى أخرى.. الخ.

المجموعة الأولى مجموعة العُطف:

جاءت هذه الرسائل وعددها ثمانية من العُطف. وأولها بتاريخ ٣ يناير ٢٦. وآخرها في ٦ أغسطس ٢٧. ويبدو أن الإمام الشهيد أمضى هذه الفترة أو معظمها في المنطقة، وأنه خلالها زار كل النواحي المجاورة التي بها الأقرباء؛ مثل (مرقص) بلد خالتنا مريم رحمها الله، ومثل "شمشيرة" حيث الأهل، و"سنديون" وهي بلد أخوال الوالدة آل سيد أحمد، و"ديروط" وغيرها.

وكان الوالد رحمه الله يخص ابنه البكر بقضاء العديد من المصالح، وتسوية بعض المشكلات بالبلد، بعد أن مضى على انتقاله إلى القاهرة قرابة عامين. وقد ظل الوالد رحمه الله يكلف الإمام الشهيد بمثل هذه المهام حتى مرحلة متأخرة عن مجموعة العُطف – وقد عثرنا بين أوراق الوالد على صورة خطاب إلى ابنه مؤرخ ٢ جمادى ١٣٥٢ (أي ٢٣ أغسطس ١٩٣٣) بعدد من التكاليفات ليقضيها: "وأنت بالمحمودية لأهميتها

ولفرصة وجودك بها". وهي لا تختلف كثيراً عما كان يقوم بها عامي ٢٦ . ٢٧ لأنها تتعلق بعوائد البيت وكان عليه - كما كلفه الشيخ الوالد: "أن تقابل أولى الشأن في مسألة العوائد بالبلد وتفهمهم أن قانون تحصيل العوائد في المراكز والمديريات والعواصم هو باعتبار المائة عشرة من الإيجار، فتكون عوائد منزلنا ستين قرشاً، والغفر باعتبار المائة عشرين من العوائد عليها تكون اثنا عشر قرشاً، تضاف على العوائد فيكون مجموع الخفر والعوائد ٧٢ قرشاً، مع أنهم يحصلون على ١١٣ قرشاً، فهذا ظلم فادح ومخالف للقانون. نرجع إلى الدكان إيجاره عشرون قرشاً فتكون العوائد ٢٤ قرشاً، يضاف إليها الخفر أربعة قروش وثمانية مليمات باعتبار المائة عشرين من العوائد فيكون مجموع عوائد وخفر الدكان ٢٨ قرشاً وثمان مليمات فلماذا يحصلون على ٤٢ قرشاً.. الخ...".

وجاء بهذا الخطاب "أرسلت اليوم بأصول ترجمة زيد بن ثابت إلى محب الدين أفندي" (٢٥).

نقول إن هذه التكاليف التي كلف بها الإمام الشهيد عام ٣٣ تقارب إلى حد ما التكاليف التي كان عليه أن يقوم بها عامي ٢٦ و ٢٧.

وفي أولى الخطابات التي أرسلها من العطف يقول:

سيدي الوالد الجليل..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (وبعد) وصلت العطف بسلامة الله، بعد أن صليت الجمعة، بدمنهور وتغديت مع الشيخ شريف بمنزلهم.

وكل جميع أهل العطف يهدونكم أركى السلام وقد قابلنا جم غفير منهم بقوله (أهلا حسن أفندي) فأفهمتهم الحقيقة، وانتهت والله بفضح كلاب دار العلوم اللي طلعا الصيت ده.

ربما سافرت غداً (الأحد) إلى شمشيرة للمهمة، أما اليوم فإني منتظر خالتي بالمحمودية. السمن لم يجهز بعد، مع أن عم مليجي مُخبر بالأمر من يومها، ولا أدري ماذا ترون، وسأشتري سمن شرف غداً إن شاء الله ودمتم).

٣٠ يناير سنة ١٩٢٦

وهذا الخطاب يتضمن إشارة إلى تغيير الزي بدار العلوم من الجبة والعمامة إلى الطربوش والبدلة.. وكان الإمام الشهيد رحمه الله هو وزميل له، آخر اثنين خلعا زيهما القديم، بعد أن أفنعهما ناظر المدرسة، وهو الأستاذ محمد بك السيد، بأن عليهما أن يكونا كبقية زملائهم، حتى لا يظهر أمام الطلبة بمظهر المنقسمين. وقد أشار الإمام الشهيد إلى هذه الواقعة في فقرة من كتاب مذكرات الدعوة والداعية تحت عنوان (تغيير الزي) وختم الفقرة: "ورغم أن كلمته الطيبة (أي الناظر) لم تكن تحمل معنى الإلزام، إلا أن قوة تأثيره واحترامنا لرأيه جعلنا نعدّه بذلك. ونفذ وعدنا فنرتدي البدلة والطربوش بدلاً من الجبة والعمامة، وذلك قبيل أن نتخرج بقليل".

(٢٥) يغلب أن يكون هو الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلة "الفتح".

وكما أشرنا آنفاً فإن مقارنة هذا الخطاب الذي كتب في إحدى القرى بقلم (كوبيا) وفي ٣٠ يناير ٢٦ بآخر خطاباته بعد عشرين عاماً يوضح وحدة الخط والطريقة والأسلوب.

أما بقية الخطابات فكلها عن شئون عائلية خاصة، مثل مقابلة خالاته في شمشيرة ومرقص وأبناء خال أمه في سنديون وعملية شراء السمن (الأقة بريال) واستخلاص الديون لإعطائها لدائنين. وقد كان المديونون مستأجري البيت والدكاكين، ولم يدفع مستأجر البيت ما عليه إلا بعد رفع قضية. أما (باشا) فلم يستطع الإمام الشهيد أن يحصل منه "ولا على سليم" لأنه على عكس ما يوحي به اسمه "في أزمة شديدة ككل الفلاحين وأنهم يستنفون الجنيه بـ ١٢٠ لتخليص أجر أفار نفاوة الرز"، ويغلب أن يكون (باشا) أحد مستأجري أرض الوالدة لأنهم يزرعون الأرز في شمشيرة.

وفي مقابل هذا فنحن نقرأ: "بدره خبيلتي على فلوسها". وما من تعبير كهذا يصور حاجة هذه المسكينة بدره التي كانت — رغم تلك البأساء لها أطماعها لأنها: "أخبرتتنا أنها تريد شراء أرض وعمل كشك وحمايتها متعاركة معها وهكذا وسأفيدكم بما يتم" ... واقتران البأساء بالأمل هو من ظواهر الريف المصري وهي التي تمسك الفلاح وتبقي عليه وإلامات قهراً ويأساً.

وفي أحد هذه الخطابات نقرأ: "عدت إلى سنديون وقابلت الشيخ سيد أحمد، وقضيت أول ليلة، ولم أتمكن من النوم إلا بعد الفجر تقريباً لنقاطر الناس. ثم أردت الاستئذان صباحاً فلم أتمكن. وهكذا مكثت في دوشة بسنديون يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ولم أتمكن من السفر إلا بعد جهد" .. فالبأساء والأزمة لم تمنع سنديون من أن تحنفي بأحد أفراد أسرتها النابهة، وأن تحتجزه ثلاثة أيام كاملة.

وفي خطاب بتاريخ ٦ أكتوبر سنة ١٩٢٦ يخطر الوالد بأن: "السنوسي" مستأجر البيت دفع ما عليه "جنيهان" وأنه دفع منها ١٦٠ قرشاً العوايد. وأن النقود الموجودة معه هي ١١٠ والمطلوب ١٧٠ للصعيدي و ٦٠ على الأقل للسفر، ٢٠ عادم، وفوق ذلك فعم عبده مشدد في الخمسين قرشاً بتوعه، وسأدبر الموضوع بحول الله وإرشاده.

أسفت للشيخ بشر والله تعالى يسهل له ما فيه الخير، أما سيدي الشيخ عبد الرحمن أحمد فتذكرت الآن أن لي به سابقة معرفة بمنزل فريد بك وجدي، وهو أخو الشيخ شاكراً، وليس شقيقه، وكنت أعرفه باسم الشيخ عبد الرحمن شاكراً والحمد لله الذي ربط النفوس".

والفقرة الأخيرة من هذا الخطاب تدل على أن الإمام الشهيد كان قد تعرف بالأستاذ فريد وجدي رحمه الله، وأنه كان يزوره وتعرف عنده ببعض آل شاكراً، قبل أن يتخرج من دار العلوم.

وفي الخطاب الأخير: "وَأما السمن وحضوري ففي الغالب سيكون حوالي ١٥ أغسطس، وقد عزمت على عدم المعالجة هذه المرة لعدم وجود النقود، فأني الآن متحير أشد الحيرة في نقود حضوري وثمان السمن، فكيف أتمكن من الإتيان بغيرها، ويفعل الله ما يشاء، وإني في العطف قد يمضي عليّ الأسبوع أو الأكثر وليس في جيبي مليماً، وقد بلغت مصروفات مشوار سنديون وشمشيرة الكل أربعة قروش صاغ كانت هي كل ما معي".

وفي الخطاب أكثر من إشارة إلى موضوع تعيين الخريجين، وتأكيد من الجميع أنه سيعين بحكم كونه الأول سواء بلغ من سعيين خمسة أو سبعة أو عشرة، ويعقب هو على ذلك: (هذه كلها بشر متوالية والأمر لله الواحد القهار).

ويختم الخطاب: "والفهرس لابد من إتمام نقله فاطمئنوا وسلامي إلى الشيخ شرف (لابد أنه صاحب السمن) والشيخ علي علام أفندي، وهكذا الدنيا عناء وشغل يتلوه شغل، ما يكاد المرء يفرغ من واحد منها حتى يقع في الآخر، ونسأل الله سبحانه أن يأخذ بأيدينا إلى طريق البر والرشاد، إنه الملجأ والمعين ونعم المولى ونعم المصير" ..

ويبدو أن هذا الخطاب هو الأخير في مجموعة العطف، لأنه بتاريخ ٦ أغسطس ١٩٢٧ وقد أعقبه تعيينه في الإسماعيلية، وسفره إليها، والحقيقة أنه تضمن إشارة هامة (تسلمت مع خطابكم يوم ٦ أغسطس خطابًا من مجلس مديرية البحيرة يدعوني إلى الكشف الطبي يوم الخميس ١١ أغسطس، وداخل المظروف استمارة خلو طرفي من الخدمة، وثانية تثبت الجنسية وحسن السير والسلوك، يراد ملأها وإمضاء العمدة والمشايخ والمأمور عليها. ويظهر أن المجلس ما صدق إنه استلم الطلب، وأنا الآن متحير أذهب إلى الكشف الطبي وأملأ الاستمارتين أم أؤخر الكشف؟ يدفعني إلى الأول أني أريد تتميم الإجراءات الرسمية بالمجلس هنا قبل حضوري إلى مصر، حتى لا يستدعي الأمر عودتي ثانية، على فرض أن الوزارة امتنعت. ويمنعني عن إنفاذه خوفي من غدر المجلس إذا تمت الإجراءات، إذ ربما أرسل إلى الوزارة (.. مساحة أكلتها الأرضة..) فنتركني، وفي الغالب سأؤخر هذه الإجراءات الآن).. ويبدو أن هذا هو ما فعله، وأنه عندما عاد إلى القاهرة وجد أمر الوزارة بتعيينه، ومن ثم سافر إلى الإسماعيلية..

وتعرض الخطابات صورة للريف المصري في إحدى فترات بأسائه وهمومه، وما تثيره الفاقة والحاجة من إحاف ومماطلة وحيرة، ما بين المطلوب والموجود، وقيمة النقود وندرته، وأن لكل قرش أهمية. وثمة خطاب وجدناه بين أوراق الشيخ من موظف بالمجلس القروي، مرسل إلى الشيخ أحمد الطباخ الذي كان وكيل الشيخ في المحمودية يقول: "مطلوب من الشيخ أحمد الساعاتي مبلغ عشرون مليوناً كماله رسوم رخصة التنظيم، فإذا سمحت بالسداد أرجو تسليمه لدافعه لإمكان استخراج الرخصة".

المجموعة الثانية الإسماعيلية:

تمثل مجموعة الإسماعيلية الجزء الأكبر من خطابات الإمام الشهيد إلى أبيه.. وهذا طبيعي لأنها تمثل المرة الأولى لاغترابه عن القاهرة كموظف، في بلد جديد تماماً عليه وعلى أبيه. ونفترض أن مراسلات عديدة جرت من اليوم التالي لوصول الإمام الشهيد إلى الإسماعيلية، وأن هذه المراسلات استمرت معظم إقامته بالإسماعيلية، لأن العلاقة ما بين الإمام الشهيد ووالده كانت وثيقة عاطفياً وعائلياً خاصة بعد بدء الإمام الشهيد في القيام بدور في تحمل الأعباء العائلية فضلاً عن بدايات الدعوة وما أثارته من رغبة في إعلام والده بتطورها.

ولكننا لم نجد في أوراق الشيخ ما يغطي المدة من تعيينه في سبتمبر سنة ١٩٢٧ حتى أول خطاب عثرنا عليه في ٧ مارس سنة ١٩٢٨ ، وهي خسارة فادحة لأنه كان من الممكن أن نطلعنا على (بدايات البداية) في الدعوة..

أيام الإسماعيلية:

كانت أيام الإسماعيلية حقبة حافلة بالأمل والنشاط والحماسة. وفي كل الخطابات باستثناء الخطاب الثالث منها نلمس نبرة الأمل والاستبشار والثقة في المستقبل، ونجد في كل خطاب تقريباً الإشارة إلى أن صحته على أفضل ما يرام، وأنه يعمل بهمة، وأنه ينام مطمئناً نوماً عميقاً، وكل شيء ينبئ بالإقبال الذي وقف الإمام الشهيد على بابه.. وبدأ منه أولى خطواته.

وقد نال الإمام الشهيد احترام وتقدير كل أهل الإسماعيلية تقريباً لأنه كان نمطاً جديداً عليهم، فلم يكن شيخاً كمألوف الشيوخ، ولم يكن موظفاً مدنياً كبقية الموظفين، ولعلمهم تتسموا فيه إرهابات القائد فأقبلوا عليه.

كما ظفر بتقدير "مجتمع المدرسة" بدءاً من الناظر فالمدرسين، لانضباطه وكفايته كمعلم، وإحكامه لمادته وسعة إطلاعه وثقافته، مما جعلته مدرساً نموذجياً، وإن كانت اهتماماته الإسلامية قد أثارت الهواجس في نفس الناظر، كما سنعلم.

ولم يقتصر تقدير أهل الإسماعيلية على شخصه، بل إنه امتد إلى كل أفراد الأسرة الذين استقدمهم الإمام الشهيد بدءاً من الوالد حتى (جمال) أصغر أفراد الأسرة والذي سيستقدمه الإمام الشهيد ليكون تلميذاً بالسنة الأولى في المدرسة التي يدرس فيها.

وقد وجدنا بين أوراق الشيخ صورة خطاب، أرسله من الإسماعيلية إلى الشقيق محمد بالقاهرة بتاريخ ١٩٢٩ / ٤ / ٥ جاء فيه:

(ولدي العزيز محمد، السلام عليك ورحمته وبركاته وعلى أخيك عبد الرحمن وباقي الأسرة،.. وبعد فقد أبرقت لكم اليوم، بحضور باكر السبت الساعة ٤ مساءً، وذلك لما ضاق صدري من كثرة عزومات أهالي الإسماعيلية، وإني حاضر إن شاء الله في الميعاد المذكور، وعسى أن تكونوا متمتعين بكامل الصحة والهناء والسرور، وأنا ما تأخرت هذا التأخير إلا قهراً مني، وحفظاً لمركز حسن مع الناس. ولولا ذلك لكادت تحصل خصومة شديدة بين الناس بسببي. والحمد لله أرضينا البعض. المهم عبد الباسط وحسن بغاية الصحة التامة والسرور..)

وهذا الخطاب يصور مدى تقدير أهالي الإسماعيلية للإمام الشهيد ووالده.

وفي خطاب بدون تاريخ من الإمام الشهيد للوالد يقول: "ومن الغريب أن أهل البلد عرفوا جمال وعبد الباسط، وكلهم يحبونهما ويكرمونهما ويحترمونهما كل احترام أينما سارا أو جلسا".

وفي خطاب آخر.. :

"جمال الدين مسرور من المدرسة، والمدرسون مسرورون به جداً، فاطمئنوا من هذه الناحية".

ولما كان قد مضى أكثر من ستين عاماً على هذه الأيام، ولم أكن من ذوي الذاكرة القوية، فلست أذكر إلا القليل عن أيام الإسماعيلية التي أمضيت فيها قرابة عام. وأذكر أن الشقة كانت صحية تغمرها الشمس والهواء والنور. كما أذكر صورة باهتة جداً للجمعية التعاونية التي كانت رائدة للسوبر ماركت، مما لم يكن لنا بها عهد، ولم تكن موجودة في معظم أحياء القاهرة وقتئذ. وأذكر أن الإمام الشهيد رحمه الله كان يعد لنا

إفطاراً أبرز مكوناته (سندوتش من ربع رغيف بالمربة) ولا أذكر أنني أكلت في الإسماعيلية (فول دممس) فلم يكن منتشرًا في الإسماعيلية وقتئذٍ ..

وأذكر أيضًا صورة باهتة للمدرسة، وكانت لها شرفات فسيحة صفراء اللون، تقوم على قوائم خشبية، وحجرات الدرس بلوحاتها المصورة المعلقة على الجدران، وكان بصري يسرح بعيدًا عن حجرة الدرس في الفضاء الممتد والشمس والصحراء والأشجار ..

ومن أبرز ما يعلق بالذهن عن أيام الإسماعيلية كثرة الزيارات المسائية، والضيوف الذين كانوا يتقاطرون على الشقة، ولا يزال حتى الآن — على ذاكرتي الضعيفة — يرن في أذني صوت الإمام الشهيد — في إحدى الأمسيات وقد أخذ الكرى بمعاقد أجفاني — وهو يستقبل زائريه " مرحبًا مرحبًا مرحبًا "

وكثيرًا ما كان هؤلاء الضيوف يتناولون عشاءهم بالشقة، ويأتون على ما كانت تُمْتَلَأُ به رفوف المطبخ من جبن ومربة وعمل وشاي وسكر وخبز، فإذا أصبح الصباح لم نجد شيئًا، وكان هذا يثير تائرة الوالدة رحمها الله عندما كانت في الإسماعيلية.

وتكاد خطابات الإسماعيلية كلها تدور حول أمرين رئيسيين؛ أولهما أخبار عن الدعوة في الإسماعيلية وتطورها. وعلى نقيض ما قد يتصور البعض، فإن المرحلة الأولى للدعوة في الإسماعيلية تعرضت لكثير من المؤامرات والمقاومات، وتطلعات المنافسين، مما شغل جزءًا كبيرًا في (مذكرات الدعوة والداعية)، وتضمنت بعض الخطابات إشارات إليها.. والأمر الثاني الشئون العائلية، وهذه كانت تنقسم إلى قسمين: الأول أخبار عنايته بأفراد الأسرة الذين استفدتمهم، وكانوا أشقاءه محمد وعبد الباسط وفاطمة وجمال. والثاني بيانات عن توزيع المرتب، وردًا على مطالبات الوالد رحمه الله . وهي تصور القدر الكبير لمشاركته في مساعدة والده على القيام بشئون الأسرة في تلك الفترة التي كانت امتدادًا لفترة البأساء التي أحاطت بالمجتمع المصري أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات، وتعرضت لها الأسرة المهاجرة من مهدها بالعُطْف إلى المدينة القاسية.

والخطاب الأول بين أيدينا من الإسماعيلية بتاريخ ٧ مارس سنة ١٩٢٨.

وجاء فيه بعد الديباجة: "مع هذا حوالة بمبلغ جنيهين قيمة المطلوب لأم مصطفى، فقد كنت أريد أن أبعث بجنيه بدلة عبد الباسط، لولا أنه لم يبق معي إلا مصروفات السفر فقد دفعت جنيهين من الأربعة المدخرة للتوفير قيمة اشتراك مع الأخوان في مصروفات المنزل عن مارس، وقد كنت أريد جعله مؤخرًا لولا أن نقودهم فرغت فدفعت نصيبي مثلهم مقدمًا. وهذان الجنيهان الباقيان، وبقي معي مصروف سفري فقط.

وتقبلوا تحيتي وشوقي، وسأطلعكم على مصروفات فبراير ومارس تفصيلًا عند حضوري والسلام".

من هذا الخطاب نعلم أن الإمام الشهيد كان يرى لوالده حقًا في التعرف على إنفاقه لمرتبه، ولم يكن ليرى في هذا غضاضةً أو ضيرًا ..

وفي ٢٩ سبتمبر كتب يقول — بعد الديباجة:

(اليوم أول العام الدراسي الجديد. وأنا أستقبله بنشاط وسرور وجودة صحة. عبد الباسط تم قيده هنا وطبعًا سوف لا تقبله (المحمدية) (٢٦) ونريد أن يدرك العام من أوله. وخاطبني الناظر في هذا؛ فبمجرد وصول هذا إليكم يتجهز بأدواته وكتبه وملابسه، وبعض الحاجيات التي لا بد له منها، ويحضر وحده بقطار الساعة ٦ وسأنتظره على المحطة، أما فاطمة وجمال فأرى أن يكون حضورهما مع عبد الرحمن، حتى يتريض عقب الامتحان بمنتهزات الإسماعيلية. أما بدلة عبد الباسط فسأشتريها له من هنا، وكذلك ما يحتاجه واقطعوا له نصف تذكرة، وإن بدا لكم رأي آخر فيدونني به وتقبلوا فائق تحياتي وإجلالي).

ويتلو هذا الخطاب خطاب آخر مؤرخ في ٥ أكتوبر ١٩٢٨ وهو الخطاب الوحيد من خطابات الإسماعيلية بل كل الخطابات التي بين أيدينا الذي يتسم بكآبة وانقباض، على نقيض المؤلف في خطاباته التي تزخر بالأمل والاستبشار، ويبدو أن من بين أسباب ذلك عدم نجاح الشقيق عبد الرحمن في أحد الامتحانات، وهو أمر لم يكن مألوفًا وقتئذٍ في الأسرة، ولكن لا شك في أن هناك أسبابًا أعم، لأن الخطاب يبدأ بـ (سيدي الوالد الجليل سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وبعد... فيُخيل إليّ أن العالم كله أصبح اليوم بؤسًا وشقاءً، وأنا على ما بنا خير من كثير، بين يدي الآن خطابات لأصدقاء إبراهيم البنهاوي ويرسلونها إليه تفيض بمر الشكوى والعذر وتتضح بحميم الحاجة والفاقة، فحمدًا لك اللهم حمدًا)، ويقترح بعد ذلك أن يحضر الشقيق عبد الرحمن إلى الإسماعيلية ليقضي فيها أسبوعًا يرتاح فيها من عناء المرض والامتحان، ثم يعود إلى مدرسته: (ولي معه كلام إذا حضر - سيدي الوالد - أرسلت إليكم خطابات، وطلبت إليكم فيه الرد مستعجلًا، وإلى الآن لم يحضر منكم شيء، ولعل تأثركم بقلة المرسل جعلكم تضنون بالرد، وأرجو أن لا يكون ذلك حقًا فإنه مما يأخذ من نفسي كثيرًا. أما إن كان هناك شيء آخر يمنع فعله زال وتوافوني بما أردت)..

لا أدري موقفكم إزاء إرسال الأولاد، في إرسالهم مصلحة لي، فإنه سيوفرون كثيرًا من النفقات الذاهبة هباء منثورًا، وسينظمون أوقاتي، ويريحونني من عناء كبير، ومصلحة لهم هي تدريبهم وتهذيبهم وتربيتهم تربية أراها راقية جيدًا، تحجزهم عن أولاد الشوارع وعطلة السبيل، وإذن يكون إرسالهم من صالح الطرفين، فلعلكم تقدرون ذلك، وتتصفوا في إحضارهم في أقرب وقت ممكن، ولو بدرجة وصول هذا إليكم).. وهذه الفقرات توضح كيف كان الإمام الشهيد رحمه الله يرى نفسه مسئولاً عن أشقائه، من أكبرهم لأصغرهم، وفي الوقت نفسه فإنه مثال الابن الحريص على طاعة والده، وأن يظفر برضائه دائمًا.

ويختم الخطاب بفقرة تعبر عن نبرة الأسي في مقدمته:

(تعبٌ كُلُّها الحياة يا سيدي الوالد. فعلينا أن نتمسك بعروة الصبر، ونمُت إلى الرضى عن الله، وبالله بسبب قوي" ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليماً".

تلك أزمان أظنها سوف لا تتجاوز هذا الشهر والله الميسر والمعين)..

وفي ١٩ / ١٢ / ٢٨ أرسل خطابًا يقول فيه:

(٢٦) مدرسة المحمدية الابتدائية بالقاهرة. وكان من المفروض أن ينتظم فيها الشقيق عبد الباسط وقتئذٍ.

سيدي الوالد الجليل

سلام عليكم ورحمته وبركاته، وبعد،،.. فقد ورد خطابكم. وطاعةً لكم فقد عزمت السيدة الوالدة على الحضور إليكم غداً الخميس بالقطار الذي يصل الساعة ٤ بعد الظهر، فليكن ذلك معلوماً لمقابلتها.

أما الرحلة فقد أنتجت نتائجاً حسناً بالنسبة لصلتي مع الناظر، وقد كانت مصادفات نتج عنها تقدير الرجل، فمن ذلك أنه بعد الغداء قام خطيبان من مدرسة بور سعيد يحيياني، وكان الناظر تجاهي ولم يكن أحداً محضراً شيئاً فنظر إليّ برأسه كالمستهم، فنظرت إليه مطمئناً وقُمت بعدها فارتجلت كلمة، كان لها وقع جميل جداً في نفوس الجميع. ومن الطرائف أن أحد المحامين الأهلين كان حاضراً ونسيت عند الخطبة، فقامت وعلى صدري فوطة الطعام، فقال ذلك المحامي (نزل الفوطة أولاً) فضحك القوم، ولكنني رددت عليه توتاً بقولي: (لعلها مقصودة أن أقول ومعني شاهد إثبات على كرم الزملاء، أفضلهم فلا يتوجه إلى دفع الأستاذ) فكانت هذه أظرف من الأولى، وكذلك طلب إليّ أن أتكلم في الثورة الفرنسية بمناسبة رواية سينمائية، فشرحتها بأوضح وبسّط أدهشا الأخوان المتخصصين في التاريخ، وكان الناظر في كل ذلك يتيه سروراً وقدرته هو، ومدحته غيابياً فبلغه ذلك فسر كثيراً وبالله التوفيق..".

ويكشف الخطاب عن سرعة البديهة التي اتصف بها الإمام الشهيد رحمه الله، كما يكشف عن سعة اطلاعه، وتنوع ثقافته التي ينم عنها معرفته بتعبيرات المحامين، والتي مكنته من أن يتحدث (بأوضح وبسّط أدهشا الأخوان المتخصصين) عن الثورة الفرنسية عندما فوجئ بهذا الطلب. ويمكننا أن نضيف من ملاحظتنا الخاصة أن الإمام الشهيد رحمه الله كان بالفعل قد وسّع إطار ثقافته الاجتماعية والسياسية، وقد كانت فترة (دار العلوم) هي فترة الثقافة المدنية في حياة الإمام الشهيد، بعد أن أحكم أساسيات الثقافة الإسلامية في فترة الطفولة والصباء، ولا يعني هذا بالطبع أنه لم يواصل الدراسات الإسلامية؛ فإنه لم ينقطع عنها أبداً ولكن معناه أنه لم يقتصر عليها، بل أضاف إليها هذه الثقافات الجديدة^(٢٧).

وهناك خطاب قد تهرأ وتمزقت أطرافه وأوصاله، وزحفت عليه الرطوبة، بدون تاريخ، ولكن يبدو أنه أرسل بعد الخطاب السابق، لأن فيه إشارة إلى زيادة مدرسي بور سعيد، رداً على الزيارة السابقة وسنحاول استخلاص ما يمكن استخلاصه مما أفسده الدهر.

(²⁷) لم يكن الإمام الشهيد رحمه الله يلم بلغة أجنبية، ولكنه كان واسع الإطلاع على الترجمات العربية للآداب والعلوم الأوروبية. وأذكر أنني اقترحت عليه يوماً، وكنت قد بدأت مسيرتي الطويلة مع اللغة الإنجليزية، أن يتعلم الإنجليزية، ولعل ذلك كان في أحد أيام رمضان. وكان كل يوم يتلو علي جزءاً من أجزاء القرآن، بينما أمسك بالمصحف، وكان حافظاً مجيداً، ولكنه كان يتوقف دائماً للتثبت عند بعض المتشابهات " أنجينا " أو " نجينا " و " أنزل " أو " نزل ". وبالنسبة للاقتراح الذي أبدته أذكر أنه أطرق هنيهة ثم قال: " نحفظ سورة أحسن ". وأعتقد أن الله تعالى قد اختار له الخبرة في هذه النقطة، كما اختارها له في غيرها، فحقاً أن إحكام لغة أجنبية يكاد يكون شرطاً لاستكمال الثقافة. ولكن الإيمان بالدعوة وأحكامها والتعمق مع قدر من الإلمام والإحاطة بالثقافات الأخرى وطرق ترجماتها قد يكون أفضل من توزيع الطاقة على توسيع المعرفة. إن التركيز على الدعوة هو الأولوية الأولى للداعية، وإذا كان في مثل ذكاء ومرونة وإطلاع وتكامل الإمام الشهيد رحمه الله فإنه يستطيع أن يستكمل النواقص ويحقق "المرونة" اللازمة للحيلولة دون جمود أو تصلب الدعوة. ولكن هذا الاشتراط (أن يكون مثل الأستاذ الينا) أمر عسير، ويكون من الضروري للداعية أن يُحْكَم لغة أجنبية، لأن هذا هو الضمان دون النظرة "الأحادية" الضيقة والجهل بالأبعاد الأخرى.

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ومن والاه

سيدي الوالد الجليل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أكتب إليكم والساعة الثانية عشر مساءً، وقد حضر إليّ منذ الساعة الرابعة فضيلة القاضي، ومكث معي مدة بالمنزل، ثم أجبرني على الخروج معه لزيارة بعض الأهالي وكنت مدعوًا إلى حفل زفاف، فذهبت إليه، وألقيت هناك كلمة طريفة في التهنئة والشكر وأغراض الزواج.

يوم ٢٦ أي ليلة ٢٧ اقترح الناظر جمع التلاميذ، وأن ألقى عليهم جميعًا بحضور المدرسين بشكل محاضرة قصة المعراج، ففعلت وشرب المدرسون جميعًا قرفة احتفالاً بتلك الليلة، وفي صبيحتها دعانا الناظر إلى تناول الحلوى بصالة المدرسة، احتفاءً باليوم وكنت طبعًا خطيب القوم.

يوم الجمعة الماضي حضر عندنا مدرسو بور سعيد وتلاميذهم، فأكرمناهم وتوالت كلمات الترحيب بهم، فبعد شعر رقيق، ونثر مستظرف، عرضت عليهم (قصيدة تمثيلية ^(٢٨)) في الترحيب، تكلمت فيها عن لسان الناظر والسكرتير ومدرسي العربي ومدرسي الإنجليزي ومدرسي الحساب ومدرسي الألعاب وتلامذة المدرسة فكان لذلك وقعًا جميلًا.

أروي لكم هذا، لتعلموا أنه كان له في نفس الناظر أثر حميد، فقد أصبح له عقيدة خاصة وأظهرني الله على ميوله الخبيثة، ونصرني على كبريائه بحوله وقوته وله الحول والطول.

الشيخ القاضي يؤيدني جدًا في مواقفي الدينية بالبلد، ويعلم في كل مجمع أنني إنما أتكلم بلسانه هو أولاً، وأنه أول من (.....) على كلامي، ومصادفة عرضت أمامه قصة صلاة العيد فسُرَّ كثيرًا، وأقسم أنه سيكون في الصف الأول في الجبل وتغالي حتى قال إنها من الشعائر التي يُحارب تاركها، وسخف وجهل المعارضين، وأشبعهم لومًا وتعنيفًا، وذلك من توفيق الله.

حالتنا جيدة والحمد لله وأنا مسرور مغتبط.. وتقبلوا تحياتنا جميعًا.

ملاحظة:

من أخبار العُطْف أن الحاج سيد الخياط توفي يوم السبت الماضي، على أثر شلل في المخ، أصابه في عقب صلاة الجمعة، وأن الشيخ عبد الرحيم البحيري توفي، وأن كامل العتال نجل الشيخ عبد الله توفي على أثر عملية بالحلق في الإسكندرية وقد جاء هذا كله في بريد واحد.. نسأل الله أن يقينا شر الغفلة، وخطر البغته".

هذا الخطاب نموذجي في تصويره لأسلوب الإمام الشهيد في استمالة القلوب واكتساب الأعداء، ويكشف عن مدى دبلوماسيته وحكمته وإيثاره، وذلك كله في الحقيقة تطبيق للآية: (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)، ولهذا فقد كان مخلصًا عندما نسب فضل ذلك إلى الله تعالى:

(28) بقدر ما استطعنا أن نقرأ فالخط باهت جدًا..

"ونصرني على كبريائه بحوله وقوته وله الحول والطول". وكان يتأسى بالرسول، وبأدب القرآن، وكان يجد في نفسه ما يتفق مع هذا، لأنه كان مهذباً حبيباً، بالإضافة إلى الذكاء والفراسة، ولهذا كان مسلكه هذا بعيداً عن مسلك الدهاء السياسي، الذي يكون هو المسلك في غيبة هذه القيم والأدب والتهذيب التي فطر عليها الإمام الشهيد..

وقد تضمنت مذكرات الدعوة والداعية إشارة إلى قضية صلاة العيد في الصحراء، وكيف جوبهت الفكرة بمقاومة قوية عندما عرضت أول مرة.

وهناك خطاب بدون تاريخ، يبدو أنه أرسل هذه الفترة يذكر فيه أن سبب تأخره في إرسال النقود هو: "حيرتي في تقسيمها، وهذه أربعة جنيهاً حتى أستدين لكم اثنين آخرين إن شاء الله تعالى.

سافرت يوم الخميس إلى دمنهور بمناسبة المولد الحصافي رجاء مقابلة الأخوان، وأخذت لمنزل أحمد أفندي كيلتين فول سوداني بمبلغ ١٨ قرشاً، فقضيت ليلة الخميس ويوم الجمعة، وعدت مساء الجمعة إلى الإسماعيلية، وقد كلفتني هذه الرحلة ٨٠ قرشاً، عوضها الله بثلاث أقق من السمن.

أما العفش فأفوض أمري إلى الله، وأني لمحتاج إليه أشد الحاجة، أما الكنبات فضرورية، والطقم لا ينفع بالرغم من عدم تيسره لا الآن ولا في المستقبل، ولا أدري ما أصنع، وتقولون نرسل البساط والسرير، وما رأيت لا هذا ولا ذلك، لا المسموح به ولا المحجوز عليه، والله ولي الصابرين".

يعقب هذا خطاب بدون تاريخ أيضاً، بوصول المتاع وتسلمه وهو "المرتبتين واللحاف والمختنين وفرش الكنبه كامل، وثلاثة طرود كتب، وشكرا لكم وإن كنتم قد أخرتم البساط".

ويتلو ذلك حديث عن مقاس الطربوش وطلب ساعة ومنبه.. الخ.

وفي النهاية " هذا وتوافوني بيوم حضوركم، بل بساعة حضوركم حتى أنتظركم على المحطة".

وفي ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٨ أرسل الإمام الشهيد على أبيه بعد الديباجة..

"اليوم أرسلت لكم طرداً به بالطو محمد، وبالطو فوزية، وصديري جمال..

الأنجال جميعاً بخير وعافية، ويهدوكم عاطر تحياتهم، وقد اشتريت لفاطمة (زمزنة) جميلة ولجمال صديري جميل، ولعبد الباسط مثله، جمال يسلم عليكم كثيراً".

وهذا الخطاب يدل على أن الإمام الشهيد استقدم في هذه الفترة ثلاثة من أشقائه.

وثمة خطاب آخر بدون تاريخ، ولكن يبدو أنه في هذه الفترة أيضاً وجاء فيه بعد الديباجة:

(وردَ خطابكم والحمد لله على صحتكم واطمئنناكم، أما جمال فهو مسرور كل السرور، وقد أدخلته مدرسة أولية فهو يتعلم بها ويحبه أساتذتها ويكرمونه جداً، أما فاطمة فأنا أوصيها كلما سنحت الفرصة الوصايا التهذيبيية، وسأشروع معها في القراءة والكتابة بحول الله وقوته، عبد الباسط كذلك أهتم بتهذيبه جداً، وبالجملة فأمل بعون الله أن أوفق إلى إرشادهم خير إرشاد إلى ما ينفعهم في المعاش والمعاد، ولهم درسان في الأسبوع بعد العشاء يحفظون فيه الحديث وكم يكون سروركم عظيماً إذا سمعتم جمال الدين وهو يقرأ الأحاديث التي حفظها بتجويد وإتقان، فمثلاً: "يا معاذ أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك ولتبك على خطيئتك"، وحديث: "صل من قطعك وأحسن إلى من أساء إليك وقل الحق ولو على نفسك" الخ.. وكذلك الجميع.

وأنا الآن لا أسهر في الخارج قطعياً، و فقط سأجعل ليلتين في الأسبوع أدرس فيهما بعد العشاء في مسجدين الساعة ١/٢ ٨ على الأكثر ثم أعود إلى المنزل.

ولنا جدول منظم يشمل الرياضة والمذاكرة والسمر والطعام، فاطمئنوا من هذه الوجة كل الاطمئنان، ومن الغريب أن أهل البلد عرفوا جمال وعبد الباسط، وهم يحبونهما ويكرمونهما ويحترمونهما كل الاحترام متى سارا أو جلسا.

وزارنا بعض الأخوان المدرسين والموظفين، فكان لتلك الزيارات أثر في نفس عبد الباسط، جعله يتعلم كيف يتأدب ويقابل الناس وهكذا.

وقد فصلت لكل منهما جلابيتين من الياباني، وحتمت عليهما النظافة وعدم السير بالحفاء ودوام الصلاة والنظام والغسل ونحو ذلك، فأصبحا يسران الناظرين، وأسأل الله التوفيق والإعانة. والذي أرجوه أن تؤدبوا محمداً وفوزية كما أؤدب أنا عبد الباسط وجمال.

سيدي الوالد..

الآن عرفت أن الأولاد إذا شعروا بالنظام في المنزل نظموا كل أعمالهم، ولذلك أرجو أن تنظموا المنزل نظاماً حسناً، فمثلاً تجعلون الصالة لسفرة الأكل وحجرة للجلوس والمذاكرة، وحجرة لنومكم وحجرة لنوم محمد وعبد الرحمن، وتضبطوا مواعيد الطعام والنوم بقدر الإمكان."

هذه الفقرات الخاصة بالدور التهذيبي والتربوي توضح تنبّه وعناية الإمام الشهيد بها، وثمة إضافة تعين علي فهمها ففي تلك المرحلة، إذ كانت الأسرة قد انتقلت من الريف إلى القاهرة، ولم يمض عليها سوى أربع سنوات، ولم تتوصل بعد إلى أن تكيف نفسها مع أسلوب الحياة في المدينة خاصة فيما يتعلق بالأكل واللبس، فلم يكن أسلوب المائدة هو السائد دائماً، كما أنها عندما توجد فليس شرطاً أن يوجد عليها الشوك والملاعق والسكاكين، فمعظم العائلات من الأصول الريفية كانت تأكل على (طبلية)، وهي مائدة أرضية لا تستخدم الشوك أو السكاكين ولكن الملاعق فحسب، وتتوب الأيدي فيما تتطلبه العملية، مما لا تقوم به المعلقة، وفيما نرى، فإن الدافع الأول لهذا الأسلوب هو بالطبع البساطة وعدم استطاعة معظم عائلات الطبقة المتوسطة الصغيرة أو الريفية شراء مائدة وكراسي الخ.. وهذه البساطة التي وضعها الإسلام في اعتباره، وأخذ بها حتى لا يشق على الناس (وهي ملحوظة في المسجد أيضاً الذي يمكن أن يكون قطعة أرض فضاء) قد أصبحت عند البعض بتأثير الفهم الساذج للإسلام أسلوباً، حتى عندما تنتفي العوامل المادية. وهذا ما لاحظناه في زيارتنا لكثير من الدول الإسلامية ولا سيما الآسيوية، من استبعاد المائدة والشوكة والسكينة بفكرة أن الأسلوب الإسلامي للأكل، إنما يكون باستخدام الأيدي والجلوس على الأرض الخ..

فإذا وضعنا في تقديرنا، أن ما جاء بخطاب الإمام الشهيد لأبيه إنما حدث منذ ستين عاماً وأن في القاهرة الآن حوالي ثمانين ألف عربية "قول"، يقدم الكثير منها وجبات في أطباق ألمونيوم صغيرة، يأكل أصحابها منها دون شوك، وأنه توجد في كل الأحياء الشعبية في القاهرة مطاعم هامشية لعمال الورش أو المحال التجارية، تقدم هذه الأطباق دون شوك بالطبع، لكان مفهومًا البطء في التكيف الذي عانته الأسرة.

وفي هذا الجانب من الجوانب المعيشية، كان مجتمع الإسماعيلية أكثر تقدماً، من المجتمع الريفي التقليدي، أو حتى البورجوازي الصغير في المدن، لوجود جالية أوروبية كبيرة بها، ولتعرف المصريين على

عادات وأساليب الحياة الأوروبية، ومن ثم؛ فأنا لا أذكر أننا في الإسماعيلية كنا نجلس على طبلية أو نأكل بالأيدي، وعلى كل حال، فإن هذا الحكم لا يصدر على سبيل اليقين، لأن مرور هذا الوقت الطويل ومعاصرة الواقعة لفترة الطفولة، تجعل هذا الحكم على سبيل الظن، لا على سبيل اليقين، وقد يؤكد هذا أن الإمام الشهيد في الإسماعيلية لم يكن يلتزم تمامًا بالنقش، الذي ألزم نفسه به في الفترات التالية بتأثير احتكاكه المباشر بالريف المصري كداعية، ففي الإسماعيلية كنا نأكل المربة وليس الفول، ولكن في القاهرة اتخذ الإمام الشهيد من الفول طعامًا ملازمًا وكان يهرسه بالشوكة..

وهذا ما ينطبق أيضًا على الزي، ففي الإسماعيلية كان الإمام الشهيد يعني بأناقته، فيلبس البدلة كاملة ويضع المنديل الحريري في الجيب الأعلى للسترة، كما كانوا يفعلون وقتئذ، وأذكر أنه كان يضع دائمًا بجانب سريره زجاجة صغيرة من الكولونيا اسمها "جينيس فليري" (رائحة الشباب)، ولكنه بعد أن خاض غمار الدعوة في أعماق الريف وشارك الفلاحين شظفهم، تخفف من هذه المظاهر، وأصبح يكتفي — في كثير من الحالات — بجلاية بيضاء ويضع فوقها عباءة، ولم تعد تظهر الكولونيا بعد..

* * *

وبعد أن انتهى الإمام الشهيد من خطابه السابق، عاد واستدرك في بقية الصفحة: (أظنكم تتذكرون كلامي مع محب الدين أفندي بشأن موضوع الحجاز وقد ظل الأمر ساكنًا إلى الأسبوع الماضي، حيث أرسل إلي محب الدين أفندي يخبرني بأن الشيخ حافظ وهبة بمصر، والأمر في دور العمل، وسكن الأمر بعد ذلك إلى اليوم، بعد كتابة هذا حيث جاءني خطاب من جمعية الشبان المسلمين بإمضاء محمود فضلي أفندي السكرتير الثاني، يخبرني أن عبد الحميد بك سعيد يرجوني تقديم طلب إلى المعارف، برغبتي في التوظيف في المعهد السعودي بمكة، على شريطة حفظ حقي بوزارة المعارف المصرية في العلاوات والمدة والوظيفة الخ.. وسأرد عليه بأن هذا الطلب ليس قانونيًا، بل المعقول أن تخاطب حكومة الحجاز وزارة المعارف المصرية بأنها تريدني موظفًا عندها، فتخاطبني وزارة المعارف لأخذ رأيي فأبدي لها بما أريد، وتتم الموافقة بهذا الشكل..

فهل يروكم ذهابي إلى الحجاز، مع حفظ حقي بمصر بمعنى، أن أكون موظفًا بوزارة المعارف المصرية منتدبًا للعمل بالحكومة الحجازية أم ماذا ترون؟

سوف لا أكتب شيئًا من الطلبات الآن، حتى يوافيني ردكم ورد فضلي أفندي، والله يختار لنا الخير حيث كان، اعملوا الاستشارة الشرعية وتقبلوا خالص إجلالي وتحيتي.

حسن

فليكن في العلم أن وجودي بالحجاز لا فرق بينه وبين مصر في البعد، لأنني سأحضر إن شاء الله تعالى أجازة كل عام تقريبًا، اكتبوا لي برأيكم أنتم الخاص، ولا تعلموا أحدًا من المنزل بهذا الأمر حتى نرى ما يتم به ."

وفي ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢٨ أرسل الإمام الشهيد خطابًا يقول فيه: (.. أما بخصوص مسألة الحجاز فقد ردت وزارة المعارف اليوم على الطلب بالرفض، وعلى ذلك فقد عدلت عنها، وما كنت مشتغلًا بها ذلك

الاشتغال الذي فهمتموه، كما لم يقع رفضها في نفسي موقعاً غير عادي أبداً ولم أجد له غضاضة أو أثراً والأمر بيد الله وله الحمد والمنة.

وقد عزمت بحول الله وقدرته على أداء فريضة الحج هذا العام، معتقداً أنه إذا صدق العزم وضح السبيل، وقد يبدو لكم هذا العزم فكرة خيالية، لعدم توفر النقود، ولكن وقتها يأتي الله بالفرج إن شاء الله. وأما بخصوص أنه ليس معي..^(٢٩) لا يؤثر في نفسي لأني لا أحتاج إلى شيء حتى أجده ميسراً أمامي وماذا..^(٣٠) غير ذلك.

يهمني أن تكونوا مسرورين متمتعين بالصحة والهناء، وتقبلوا عظيم الشوق والإجلال وعطر التحية لكم جميعاً. ومن هنا جميعاً عبد الباسط وفاطمة بخير يسلمان عليكم ودمتم.

وهناك خطاب بدون تاريخ، يعتذر فيه عن عدم زيارة الأسرة في العيد، ويقول فيه بعد الديباجة: "فقد كان بودي إجابة مطلبكم بخصوص الحضور في العيد، لولا أن هناك عذراً شديداً يمنع ذلك، أقوله لكم والأمر بعد ذلك كما ترون.

الامتحان عقب الأجازة مباشرة، والأجازة طويلة، اثني عشر يوماً، ويعني ذلك أن التلاميذ سيحضرون، وقد نسوا ما درس لهم خصوصاً التمرن على الامتحان – فلذلك رأيت أنا وبعض المدرسين البقاء، وتكليف التلاميذ الحضور كل يوم وقتاً قصيراً نمرنهم فيه على الامتحان لتحسين النتيجة، ولا سيما السنة الأولى التي أدرس بها.

تلك هي الموانع أدلي بها إليكم والأمر لكم، وتذكروا قرب الأجازة وأفهموا سيدتي الوالدة هذه الأسباب حتى يطمئن بالها والسلام عليكم".

بهذه الروح كان المدرسون يمارسون مهمتهم المقدمة ويضحون في سبيلها بأجازاتهم.

وثمة خطاب طويل، مؤثر، بدون تاريخ، توحى وقائعه أنه كتب أواخر سنة ٢٨، أو أوائل سنة ٢٩، وضمنه الإمام الشهيد مفردات إنفاقه لمدة ثلاثة شهور وذيلته بعبارة " يحفظ هذا الخطاب كأثر" .. وقد وجدناه في ظرف مستقل كتب عليه الوالد بخطه: "به خطاب أثري للمرحوم أوصي بحفظه" وكلمة (المرحوم) تدل على أن الشيخ وضعه في هذا الظرف الخاص، وكتب عليه عبارته تلك، بعد الاستشهاد، أي أن الشيخ رحمه الله كان يقلب في تلك الليالي الطويلة التي كان يقضيها ساهراً وحيداً، خطابات ابنه وعندما وجد تأشيرته في ذيل الخطاب أفرد به بأن وضعه في ظرف خاص وكتب عليه جملته تلك.

في هذا الخطاب يقول الإمام الشهيد.

⁽²⁹⁾ انمحي الخط بتأثير نقطة ماء أو سائل فيما يبدو.

⁽³⁰⁾ انمحي الخط بتأثير نقطة ماء أو سائل فيما يبدو.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

سيدي الوالد الجليل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فقد وصلني خطابكم الأول وما منعتني من الرد عليه إلا كثرة الأعمال فقط، ثم جاءني اليوم الخطاب الثاني فكان لابد من الرد عليه أيًا كان، فإليكم البيان بما أنتم تودون أن يرتاح ضميركم من جهتي كأني قلق لضميركم وألم لراحتكم والأمر لله، على كل حال الذي يهمني راحتكم مهما كلفني ذلك، سأفصل لكم في هذا الخطاب حساب ثلاثة أشهر مضت هي نوفمبر وسبتمبر وأكتوبر، أي منذ فارقتكم، لتعلموا أن ليس في تصرفي شيئاً من الإسراف، ولا الخفاء ولا الاستبداد برأيي، وإنما أنا مسوق بقوة الظروف التي لا تغلب، وإذا كانت ظروفِي هكذا فما ذنبي أنا.

شهر سبتمبر – جئت الإسماعيلية يوم ٨ منه فصرفت في باقيه ثلاثة جنيهاً تماماً، مع أنني وحدي ولست أغشكم أو أكذب في هذا، إذ لا داعي لأحدهما – أما كيف صرفته فهي في غير تبذير ولا إسراف، بل كنت في ذلك كصلاح أفندي وإبراهيم ومن كنت معهما. كان معي من هذا المبلغ كله ثمانين قرشاً منها أجرة القطار، ومن أين الباقي؟ سلفة طبعاً؛ من إبراهيم البنهاوي ١٥٠ قرشاً، ومن الشيخ علي ١٠٥ ، ومن شربيني أفندي ٤٥ ، هذا عدا سفر الأولاد الذي حاسبت عليه إبراهيم، وعدا أجرة المنزل عن يولييه وأغسطس وسبتمبر، ومن أين يدفع هذا؟!... طبعاً يدفع من مرتب سبتمبر.

شهر أكتوبر وتوزيع مرتب سبتمبر – أو بعبارة أدق إلا قليلاً:

لإبراهيم أفندي من أصل الحساب الذي بلغ خمسة جنيهاً	٢٠٠
لشربيني أفندي	٤٥
للشيخ حسن من ١٠٥ بقيت له بعد آخر دفعه	٥٥
الفراشين	٢٠
حوالة أرسلت إليكم	٧٠٠
للشربيني من ثمن الكتب	١
للحلاق والمكوجي ٢٥، ٢٥	٥٠
كليمين	٢٥
أجرة المنزل عن نصف سبتمبر الأخير وبعض تكاليف	١٠٠
للشيخ علي من أصل حسابه البالغ ١٠٧	٥٧
الشركة (استجرار)	١٥
مكارم الأخلاق عن شهرين	١٠
لمسجد العرايشية	٥٠
لمبة ١٠	٣٠

مفرش السرير	٣٠
شيك لمحجوب أجرة الكتب المجلدة عنده	٧٠
مصروفات جمال الدين	٢٠٠
شرابات ومناديل وبعض لوازم نقدًا	٥٠
من تكاليف الكنبات الثلاثة	٩٠
للتريزي	٥٠
أجرة بوسنة لإرسال نقود وخطابات	١٥
لسفر دمنهور فقط	٣٠
لسفركم	٣٠
	١٩٢٣

هذا عدا أشياء دفعت في أغراض كهذه ولوازم لم أتذكرها الآن، وأغفلت كتابتها — و عدا مصروف الشهر من مأكّل ومشرب ونور.. الخ، بل هي النقود التي دفعت أول الشهر بمجرد تسلم المرتب، وزد عليها ثلاثة جنيهاً ونصف على الأقل للأكل. ٣٥٠

والشرب فالنتيجة ثلاثة وعشرون جنيهاً ننزل منها مرتب الشهر وهو ١٥ جنيهاً فالباقي ٢٢٧٣ ثمانية جنيهاً فمن أين هذه؟ إليكم البيان، وأرجو ألا يزعجكم ذلك فإن كان يؤلمكم أنني سافرت دمنهور فوالله ما خسرت فيها إلا ثلاثين قرشاً فقط كانت في جيبي، وأخذت بها التذكرة من الإسماعيلية ودفع عامل التذاكر تعريفة بقي من ١/٢ ٣٠ ثمن التذكرة وعدت على حساب غيري، وإن كان يؤلمكم الخمسين قرشاً التي دفعت في المسجد فقدروا الظرف الذي تورطت فيه لدفعها، وقدروا أجرها، وإن كان يؤلمكم ثمن الكتب فهذه أموال نافعة باقية، على أنه موسم وانتهى، ولكن من أين أتيت بالباقي؟ أتيت به من الشيخ حامد الذي اقترضت منه سبعة جنيهاً، واقترضت من مال الجمعية جنيهاً آخر وهي تمام المنصرف.

وإلى هنا ننتهي من حساب مصروف شهر أكتوبر وإليكم بيان مصروف شهر نوفمبر:

حوالة لمصر لكم	٣
التريزي وبذلك ينتهي حسابه	١
المدني ويبقى له جنيه غير ثمن المعجم إن كان اشتراه كما أخبرني	١٥٠
أجرة المنزل	٢
الشيخ حسين بقية الحساب القديم ٥٠ وأشياء جدت في أكتوبر ٥٠	١
الشركة	١٥
جمعية الشبان عن ثلاثة أشهر والمكارم	٥٠
فراشين	٢٠
الحلاق	٢٠
جميعتنا بالإسماعيلية	١٠

إبراهيم أفندي البنهاوي من حسابه ويكون الباقي له بعد ذلك جنيه فقط.

والباقي من المرتب وهو ثلاثة جنيهات و ٣٥ قرشاً أعطيتها لفاطمة على سبيل المصروف.

ولكن الشيخ حامد طلب جزءاً من نقوده، بل نقوده كلها فماذا أصنع له أخذت جنيه الناموسية وجنيه واحد من المصروف وجنيه من إبراهيم أفندي البنهاوي وجنيه من عاكف أفندي وتسلم أربعة جنيهات من سبعة وتبقى له ثلاثة.

وبذلك بقي لنا مصروف ٢,٣٥ فقط. وهذا لا يكفي فلا بد من الاعتماد على أن يكون الخبز لآخر الشهر، ولوازم البقالة من الشركة لآخر الشهر وهذا ما كان.

ذلك يا سيدي حساب ثلاثة أشهر. تقدم إليكم أدق من الشعرة، فإن كان لا يروقكم فما ذنبي أنا، فلتسألوا الله أن يحور هذه الظروف، وتتميمًا للأمر والبيان سأوافيكم بملخص ما عليّ من الديون الآن. لتكونوا على بصيرة من كل الأمر.

جنيه

٣ للشيخ حامد

١ لعاكف أفندي

١ للناموسية

١ للمدني

٢ لإبراهيم أفندي

١ للشرنوبي

لعبد الحكيم أفندي

عدا ديون فاطمة ووالدتي ودينكم.

إذا كنتم بعد هذا لا تزالون مصرين على اقتراحكم، وتريدون ألا تفكروا في تصرفاتي هذه، المعقدة المتشابكة وتريحوا أنفسكم من عنائها، فأنا أتقبله بكل سرور، على أن يعدل تعديلاً يسيراً إذا وافقكم. وأما إذا أبيتتم هذا التعديل فلا أعارضكم. ولكني أرى من الرحمة والعدل أن يكون ذلك هو أن تتركوا جمال الدين وعبد الباسط بمصروفهما المدرسي والملبسي والمأكل وكل لوازمها وفاطمة كذلك. ثم تأخذ والدتي نصف جنيه مصروف وفاطمة نصف جنيه مصروف وأنتم جنيه مساعدة على جنيه عبد الرحمن، وأرسل لكم الجنيهين شهرياً مع الدين القديم ٢٢٠ قرشاً، غير دين الناموسية الذي أدفعه كذلك فتتسلموا الجنيه الذي يخصكم وتأخذ والدتي الجنيه الذي يخصها هي وفاطمة. إذا قبلتم هذا كنت شاكراً ممتناً مع أي أطمئنتكم من الآن على تصرفاتي وماليتي التي ستكون على خير ما تحبون.

أما عبد الرحمن أفندي فلا بأس حقاً وهل قلت لكم مرة أن به بأساً؟ والله أسأل له التوفيق في كل خطوة من خطوات حياته، وأن يجعل الخير راشده واليمن قائده.

أما حالتنا المنزلية فنحن سعداء مسرورون هانئون وادعون، ليس وراء ما نحن فيه شيء من السعادة، يشعر جميعنا بذلك، وقد صنعت للكتب دولاباً جميلاً جداً تكلف جنيهاً لا يزال ديناً، فضعوه مع الديون، وصنعنا كذلك تراييزة مطبخ تكلفت ثلاثين قرشاً دين أيضاً، فضمّوها إلى الدولاب حتى تكون الإحصائية وافية، وفاطمة مسرورة جداً وعندها أم قرني كالخادم الأمين، وكذلك زوجة الأسطى عبد النبي ووالدته، وكل نساء العرايشية الطبيبات والحاجة تزورها وهي في أمن ودعة.

وأما غضب والدتي فحكمتكم كفيلة بإزالتة وترضيته، وإذا كانت غضبت وهي لم تعلم بكل هذه التفاصيل فكيف إذا علمتها وسمعت اسم عاكف وحامد والجمعية مساهمين في لجنة القروض؟ أظنها تفعل ما لا يُعقل وتُحكّم الرأي على الغضب الشديد، فابذلوا الجهد في تسكين ثورتها وإرضاء خاطرها وإقناعها وتفهمها ما في هذه الخطابات.

والذي ألاحظه الآن أن وجود فاطمة سيخفض من المصروفات كثيراً، وأنه بعد هذا الشهر ستفرج الأزمة وتتحل العقدة.

وإذا لم يرق في نظركم كل هذا، فإله نعم الكفيل يكفل لي إقناعكم وترضيته، وقد أصبحت أشعر من نفسي بخلق غريب هو التسليم لله تبارك وتعالى بحكم ما يريد.

اكتبوا إلي بما تريدون، وسلموا الكتب التي عندكم للمدني لتجليدها، وإذا مر بكم إبراهيم أفندي البنهاوي فأرسلوا معه كتاب "طبقات ربات الخدور" و"رحلة ابن بطوطة".

كنا نفكر في أنكم ترسلون لنا خادماً من عندكم فما ترون وتفضلوا بقبول تحية عطرة مخلص (٣١).

وهناك خطاب بدون تاريخ، يحتمل أن يكون سابقاً لهذا الخطاب، لأن فيه إشارة على توقع حضور الوالد للإسماعيلية الذي حدث في مارس سنة ١٩٢٩.

في هذا الخطاب يقول الإمام الشهيد — بعد الديباجة:

(.. وبعد فقط وصل خطابكم، وأما بخصوص حضوركم فأرى أن يكون بمجرد وصول هذا إليكم فإننا في حال عسر شديد، بخصوص نظام المعيشة نتحير في كل شيء وقد عملت حسابي بخصوص الشيخ، حامد فأحضرت المنزل مفروشاً، والرفيق الصالح وهو مدرس عندنا، وسينزل من أول يوم في منزله ولكنه لا يعلم بذلك حتى الآن فاطمئنا من هذه الوجهة كل الاطمئنان، وحضوركم يكون بكل سرعة لشدة الحاجة إلى ذلك، ولو رأيتم أن يكون معكم سليمان (٣٢) لاحتياجنا إليه وتبحثون لكم عن غيره فعلتم، وإلا بحثنا عن ولد أو بنت صغيرة هنا.

(٣١) ذيل الإمام الشهيد رحمه الله هذا الخطاب بجمتلين بقلم رصاص باهت شيئاً ما جاء في الأولى "الترغيب والترهيب أرجو أن تشتروا لكم نسخة على حسابي" والثانية "يحفظ هذا الخطاب كأثر".

(٣٢) سليمان — هو خادم الأسرة وقد ظل في خدمتها فترة طويلة وقد كان لدى الأسرة دائماً خادم — ذكراً أو أنثى، وكان عادة من البلد، وربما من أحد فروع الأسرة. وكانت تعامل كفردها منها. وأذكر أن الوالد — رحمه الله أنبني بشدة لأنني في إحدى لحظات الغضب ناديت الخادم، وكانت سيدة كبيرة السن باسمها وليس بكنتيتها. وكان وجود خادم لدى أسرة كبيرة العدد، محدودة الموارد جزءاً من أوضاع وممارسات المجتمع وقتئذٍ على نقيض الأسر الآن عندما لا تجد الأسرة الثرية خادماً وتضطر لاستقدامها من الفلبين! والسبب أن العهد الأبوي الذي يعود إلى الأصول الريفية انقرض وظهرت

وأما بخصوص النقود فما دتم رأيتم ذلك، فلا بأس وإن كان المدني (٣٣) أرسل إلي خطاباً بيدي فيه أشد العذر لإرسال النقود، وكأنه لم يصله منا إلا خمسين قرشاً، ثم أنكم تقولون إنني لم أجعل لكم نصيباً في المبلغ، مع أنني أخبرتكم أنني دفعت مصروفات جمال الدين لتأخذوها من عبد الرحمن أفندي، فكان لكم منه النصيب المفروض.

جمال الدين مسرور من المدرسة والمدرسون مسرورون به جداً فاطمئنوا من هذه الناحية وغيرها جداً.

وتمر فترة دون خطابات لحضور الوالد نفسه للإسماعيلية..

وفي ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٩ هـ (٩ أكتوبر ١٩٣٠ م) أرسل الإمام الشهيد إلى أبيه خطاباً يقول فيه بعد الديباجة:

فقد وردَ خطابكم الكريم، وإن اليوم الذي أستطيع فيه إرضاءكم هو أسعد أيامي حقاً، وعقيدتي أنني ما خلقت إلا لأرضيكم، وليس لي من الحق في كل ما يقدره الله لي بعض ما لكم ذلك ما أعتقده وأقوله بإخلاص ويقين.

والذي أريده فقط أن تغتبطوا بذلك، وتعلموه وأن تخفف سيدتي الوالدة من ألمها، لعدم التوفير فإن هذه ضرورة لا بد منها ستفرج عما قليل.

والله إنني لأقضي ساعات طوال في ألم لتألم والدتي، وفي تفكير كيف أرضيها، وكيف أسعدها، وكيف أجعلها هادئة مغتبطة، فهل يوفقني الله إلى هذه الأمنية.

خطر لي أن أزورك كل شهر مرة، لا لشيء إلا لأراكم وأشرف بتقبيل يديكم ويدي والدتي، وأحظى بدعوة صالحة من دعواتكم لي، وعسى أن يكون هذا مرضياً لوالدتي بعض الرضا.

وسأبدأ بتنفيذ ذلك ربما غداً إن شاء الله (الأربعاء)، فقد أحضر مساءً، وأقضي معكم ليلة الخميس والجمعة والسبت بحوله تعالى وقوته، وتفضلوا بقبول فائق احترامي وتحيتي".

وما من خطاب كهذا يصور الإيمان بفضل الوالدين، والعمل للوفاء به. وليس هناك مبالغة إذا قلنا إنه مثال لما يجب أن يكون عليه إحساس الابن نحو والديه وعلاقته بهما.

وفي ١٢ رمضان ١٣٤٩ كتب الإمام الشهيد إلى والده:

سيدي الوالد الجليل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته "وبعد" فلعلكم وأفراد الأسرة المحبوبين جميعاً ممتعين بكامل الصحة والهناءة، وقد ورد خطابكم الكريم فأما الخيمي فحقاً ما قال، ويبقى له ١٤٠ قرشاً، وسأبعث لكم بالنقود

"البورجوازية" المدنية التي تسيء معاملة الخدم ثم جاءت مرحلة التحول الاشتراكي) بقيم تصم الخدمة في البيوت. وكانت الممارسة الأولى تتفق مع أوضاع المجتمع، بينما كانت الممارسة الثانية دليلاً على فشل التحول في تحقيق قيمه. (٣٣) المدني تاجر الكتب الذي كانت الأسرة تتعامل معه وكان له دكان صغير جداً في الصناديقية بالأزهر.

والمطلوب كله بالبريد، أو صحبة عبد النبي أفندي، لأنه ربما يسافر إلى مصر في خلال الأسبوع القادم إن شاء الله تعالى.

سيكون افتتاح المسجد إن شاء الله تعالى في حفل عظيم يوم الخميس القادم، السابع عشر من رمضان، وحبذا لو كان الوقت يسمح بتثريكم.

محمد^(٣٤) مسرور محبب إلى الأخوان، وهم محبون إليه، ولعل عبد الباسط تم في شأنه شيء، فقد علمت أن لجنة المجانية انعقدت يوم الأربعاء الماضي ولا ندري ما تم. الحال هنا على أكمل ما تحبون هناة وراحة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حسن

شددوا على الخيمي في إنجاز الأعلام يوم ١٥ رمضان لضرورتها في حفل ١٧ رمضان وتقبلوا تحيتي.

وفي ٢٢ شوال ١٣٤٩ هـ (مارس ١٩٣١ م) كتب:

سيدي الوالد المحبوب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: فلعلكم جميعاً بخير ما أحب لكم هناة وغبطة.

عندي بشريان أقدمهما لكم مشفوعتين بحمد الله وشكره.

الأولى إننا تسلمنا بقية المبلغ وهو ٣٠٠ جنيه من الشركة.

الثانية أن سعادة مراقب التعليم الابتدائي (علي بك الكيلاني) زار الإسماعيلية، وزار المدرسة وكان له بها حفل تكريم حضره الأعيان والموظفون وكنت خطيب القوم فسر الرجل سروراً جماً، تضاعف بزيارته لي في الفصل.. بما رأى من نظام ونشاط.

ثم إنه زار في الليلة التالية المسجد ومدرسة التهذيب، ومعه المأمور والمعاون ووكيل النيابة والناظر والمدرسون، فدهش لما رآه من نظام الجمعية والمسجد والمدرسة، ووقع دفتر الزيارة، ثم انتقل هو والمدعوون إلى (بوفيه) شاي وتناول الشاي في حفل عظيم، وخطب الأخوان خطباً وقصائد في الترحيب به فزاده كل ذلك غبطة، وقام محيياً الجمعية والأخوان.. الخ ."

وقد أشار الإمام الشهيد — رحمه الله — إلى هذه الواقعة في كتاب "مذكرات الدعوة والداعية" وقد أصبح الأستاذ علي الكيلاني بعد ذلك من الأخوان، وكسبته الدعوة بعد أن كان قد أرسل للتحقيق في اتهامها، كما كسبت بعد ذلك قضاة أريد منهم الحكم عليها..

وفي ٢٣ المحرم ١٣٥٠ هـ — ١ يونيو ١٩٣١ م كتب إلى الوالد:

(34) انتهز الإمام الشهيد رحمه الله وجود الشقيقين محمد وعبد الباسط بالإسماعيلية، وعينهما مدرسين متطوعين بمعهد حراء الذي أسسه الإخوان هناك، ورفض اقتراح الإخوان تخصيص أي شيء لهما، فأقام لهما الإخوان حفلة تكريم.

"فقد وصل خطابكم وسررنا لجمال الدين ونهنته، أما عبد الباسط فنتيجته سارة كذلك فإن الراسب في علم كالناجح، فطمئنه على نجاحه وراقبوه في هذه الأيام حتى ينتهي الأثر من نفسه. قابلنا الشيخ العرفي⁽³⁵⁾ وأوصلناه من الإسماعيلية إلى القنطرة فالسكة الحديدية الفلسطينية.

حالتنا هنا هادئة وسنحضر إن شاء الله يوم الاثنين القادم بقطار الظهر، الذي يقوم من الإسماعيلية الساعة العاشرة ويصل ١٢,٣٠ عندكم".

وفي ١٠ يوليو سنة ١٩٣٢ أرسل خطابًا بالبريد المستعجل يخطر الوالد فيه بأن: "أحد الأخوان المخلصين وهو عثمان الجضي سيصل إلى القاهرة وسينزل عندكم، فأرجو أن تقابلوه على المحطة بنفسكم، أو من ترون أنه يؤدي المهمة، إذا كان عبد الرحمن أفندي يسمح، وعلامة هذا الشخص أنه يحمل وسام الجمعية... وقد أكد الإمام الشهيد هذه الوصية (لما لهذا الشخص من المآثر والإخلاص في الخدمة) وأرسل مع الأخ عثمان خطابًا آخر.

وقد كان الأخ عثمان الجضي من الرعيل الأول في الإسماعيلية وممن اشتهروا بالإقدام والجرأة. والخطاب يصور تقدير الإمام الشهيد — رحمه الله — لإخوانه وللعاملين في الدعوة، وكيف أنه يطلب من والده أن يقابل أحد هؤلاء الأعضاء ويوصيه مشددًا بإكرامه.

وفي ٣٠ يوليو سنة ١٩٣٢ كتب الإمام الشهيد إلى والده من المحمودية خطابًا طويلًا جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المحمودية في ٣٠ / ٧ / ١٩٣٢

سيدي الوالد الجليل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته " وبعد " فأكتب الآن إليكم بعد فترة طويلة من الكتابة، اكتفيت فيها بأقلام الأخوين محمد وعبد الباسط السيالة.

أنا الآن بالمحمودية، وقد حضرت إليها من ثلاثة أيام، وفي عزمي زيارة شبراخيت إن شاء الله، ثم العودة إلى الإسماعيلية، وقد أوصيت الشيخ محمدًا بالتصرف في المرتب حسب المقرر.

(١) المحمودية على ما تعلمون من حالها، وقد زرت الأصدقاء بها وكلهم بخير والحمد لله ، وكانت لي خطبة الجمعة بالمسجد الصغير بالنيابة عن الشيخ زهران أمس، وقد شكى إلى الشيخ محمود دويده بسبب صعوبة تحصيل الإيجار من جهة، وبسبب إشراف الدكاكين على الانهيار من جهة أخرى، وقد كاد المهندس يقرر الإزالة والهدم، وقد رأيتها بنفسي، ورأيت أن الهدم صار واجبًا، ويُعمل بهذا الخشب سور حول الأرض إذا صلح لذلك فماذا ترون في هذا.

(35) الشيخ محمد سعيد العرفي عالم دير الزور، جاء القاهرة بعد أن نفاه الفرنسيون من بلده فتعرف على الشيخ الوالد — رحمه الله — وآزره في "المسند"، حتى سمحت الظروف بعودته إلى بلده عن طريق الإسماعيلية فالقنطرة فسوريا.

(٢) الإسماعيلية تركتها بخير، وقد تم بيني وبين المخالفين الملاعين صلح تهدئة فقط، يجعلنا نتحاجز ولا نتصل، وقد رأيت أن ذلك خيراً للطرفين، مع الاحتراس اللازم، ومن طيه إعلان بملخص هذا الصلح.

(٣) أنا مهتم بموضوع النقل كثيراً، ولا تزيدني حركات الإسماعيلية إلا رغبة فيه، وقد كتبت لكثيرين ووعدوني المساعدة، وقد رأيت الليلة فقط أنني نقلت إلى مدرسة الجيزة الابتدائية، فهل هذا حق أم أضغاث أحلام ذلك ما ستفسره الأيام.

(٤) لم أكتب إليكم بشيء ما بخصوص "حسن أحمد مرسي"، ويحسن هنا أن أذكر لكم على سبيل العلم شيئاً عنه، فلعلكم في شوق إليه، بعد حضوري علمت أن السبب في تأخرهم نقاش ومناقسة بينهم وبين الحاج حسن البيك في موضوعات تجارية، وهم في كل الأدوار منتصرون، فصرفهم هذا التنافس عن تتميم الأمر، ولكن الرجل وابنه أبوا قبول المبلغ المودع بتاتاً، فصارحهم بأنني لا يمكنني الموافقة على هذا الأمر، إذا نُقلت فكان جوابهم ليكن هذا المبلغ مودعاً بأسمهم. إلى الآن والشاب يرجوني دائماً ألا أكون سبب في انهيار آماله، وأنا أجعل له النقل حدّاً فاصلاً والعاقبة بيد الله تعالى. محمد وعبد الباسط مسروران، ولا أدخر وسعاً في راحتها ولعلمها يكتبان إليكم بذلك، وسلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

حسن

وهناك خطاب من الأقصر يمكن أن يعد ختام هذه المجموعة من خطابات الإسماعيلية، لأن الإمام الشهيد نُقل بعدها إلى قنا.

وفي هذا الخطاب (١٧ رجب ١٣٥٨) سبتمبر ٣٩ يقول بعد الديباجة المعهودة:

ورد كتابكم الكريم، والله أسأل لكم المعونة وجميل المساعدة، ولست أجهل ما يحيط بكم، قواكم الله ، وبخاصة في هذه الأوقات العصبية.

وفي آخر هذا كلمة لجمال الدين ليعمل بها إن شاء الله.

الرحلة ببركة دعواتك موفقة، وصحتي والحمد لله جيدة للغاية، وكل ما يحيط بي هنا مريح، وأجد في دعواتكم المباركة خير معين على عمل شاق حقيقة، ولكنه يسير على ما يسره الله عليه، فلا تحرموني صالح هذه الدعوات والسلام عليكم والتحية للجميع ورحمة الله وبركاته، ولعل فاطمة مستريحة وبخير وصحتها جيدة.

ولدكم حسن

عزيزي جمال الدين

خذ من المرتب ثلاثة جنيهات فوق التقسيم الذي ذكرته لك، وهي استحقاقك هذا إذا لم تكن أرسلت النقود، فإذا كنت قد أرسلتها فخذ هذا المبلغ المتجمع عندك للمطبعة، أو من كمبيالة على خطاب، وسلمه ١٥٠ قرش وصيّره حتى أحضر وسلاماً عليك ."

والكلمة الصغيرة أدنى الخطاب الموجهة لكاتب هذه السطور كانت لمناسبة إشرافي على إدارة مطبعة الأخوان، التي كانت وقتئذٍ تشغل جناحاً من دار الأخوان القديمة بالحلمية (١٣ ميدان الحلمية) وكان الإمام الشهيد يدفع لي ثلاثة جنيهات شهرية كانت أشبه بمصروف جيب، لأن وضعي العائلي ظل كما كان. أما كمبيالة على خطاب، فتلك تشير إلى أننا كنا قد اشترينا آلة طباعة صغيرة من أحد تجارها بشارع دسوقي هو علي خطاب، وكانت معظم المعاملات هذه الفترة تدور بالكمبيالات، وهي إحدى صور التسهيل والإغراء التي تُعد جزءاً من بنية وروح النظام التجاري وقتئذٍ، وكان علي خطاب رجلاً طيباً متجاوباً، كما قد ينم عن ذلك الإشارة إليه في الخطاب.

المجموعة الثالثة قنا – القاهرة:

نقل الإمام الشهيد – رحمه الله – إلى القاهرة سنة ١٩٣٢، وبالطبع لم تدر مراسلات ما بينه ووالده ما دام هو بالقاهرة، واحتل الأخوان الدور الأرضي بمنزل الأسرة بحارة نافع. وبعد فترة قررت وزارة المعارف (كما كان اسمها) نقل الإمام الشهيد إلى قنا، ولم يُشر الإمام البنا في مذكراته إلى هذا النقل أو مبرراته، ولكننا نجد ذكرًا لهذه المبررات في كتاب الدكتور محمد حسين هيكل الذي كان وقتئذٍ وزيرًا لوزارة المعارف – إذ جاء في صفحة ٢٠٨ من كتابه "مذكرات في السياسة المصرية، الجزء الثاني":

"كان الإنجليز يومئذٍ شديدي الحساسية، وبخاصة إزاء ما يبديه بعض ذوي الرأي من المصريين من ميولهم المحورية، وإزاء بعض العناصر ذات النشاط بين سواد الشعب. وكانت جماعة الأخوان المسلمين قد تألفت قبل ذلك بأعوام قليلة، على أنها جماعة دينية تدعو للتخلق بالأخلاق الإسلامية، وللأخذ بقواعد التشريع الإسلامي، في النظام المصري. وكان الشيخ حسن البنا هو الذي دعا لتأليف هذه الجماعة فكان مرشدها العام. وكان الشيخ حسن معلمًا للغة العربية، في مدرسة المحمدية الابتدائية الأميرية. وقد أبلغت السلطات البريطانية رئيس الوزارة، حسين سري (باشا)، أن هذا الرجل يعمل في أوساط جماعته لحساب إيطاليا ورغبت إليه في العمل على الحد من نشاطه. ورأى سري (باشا) أن نقل الرجل من القاهرة إلى بلد ناءٍ بالصعيد، يكفل هذا الغرض، فحدثني في الأمر وطلب إليّ نقله إلى قنا. ولم أجد بأسًا بإجابة طلبه، فنقلُ مدرسٍ في مدرسة ابتدائية ليس أمرًا ذا بال، إذ يقع مثله خلال العام الدراسي في كل سنة ولا يترتب عليه أي أثر.

لكن نقل الشيخ حسن البنا أدّى إلى ما لم يؤدّ إليه نقل مدرس غيره. فقد جاءني غير واحد من النواب الدستوريين يخاطبني في إعادته إلى القاهرة ويرجونني في ذلك بإلحاح. ولما لم أقبل هذا الرجاء ذهب هؤلاء النواب إلى رئيس الحزب، عبد العزيز فهمي (باشا)، وطلبوا إليه أن يخاطبني في الأمر، وخاطبني الرجل فذكرت له أن حسين سري (باشا) هو الذي طلب إليّ نقل الشيخ حسن البنا بحجة أن له نشاطًا سياسيًا، وأن النشاط السياسي محرّم على رجال التعليم كما أنه محرّم على غيرهم من الموظفين، وأنتي لا مانع عندي من إعادة الرجل إلى مدرسة المحمدية، كما كان إذا أبدى سري (باشا) عدم اعتراضه على إعادته. وخاطب عبد العزيز (باشا) سري (باشا) في الأمر، وذكر له إلحاح طائفة من النواب الدستوريين ذوي المكانة. وواعد سري (باشا) بإعادة النظر في الموضوع، ثم أبدى لي أنه لا يرى مانعًا من إعادة الرجل إلى القاهرة فأعدته.

ترى أحسن سري (باشا) في تراجع هذا أم أساء؟ لعله خشي أن يزداد ضغط النواب جسامة، وبخاصة حين رأى سؤالاً يقدم إلى البرلمان في هذا الشأن، فأراد اتقاء ما قد يجر إليه ذلك من نتائج، لكن الذي لا شبهة فيه أن تراجع أشعر الشيخ حسن بأن له من القوة ما يسمح له بمضاعفة نشاطه من غير أن يخشى مغبة ذلك النشاط، وأن هذا الشعور كان له أثره في تطور جماعة الأخوان المسلمين من بعد ."

وكما رغب الإنجليز في الحد من نشاط الشيخ حسن البنا رغبوا كذلك إلى سري (باشا) أن يعمل على الحد من نشاط علي ماهر (باشا).. الخ..".

من هذا يتضح أن السلطات البريطانية كانت وراء هذا النقل بنص تعبير هيكل: "وقد أبلغت السلطات البريطانية رئيس الوزارة.. الخ" .. وقد أُلّف الكتاب والسياسيون أن يُسفّهوا ما يقوله الأخوان عن تدخل للسلطات البريطانية، أو على الأقل يستبعدون مثل هذا التدخل. واعتراف هيكل دليل دامغ على خطئهم.

ونفذ الإمام الشهيد النقل دون تردد، لأنه كان طوال حياته الوظيفية مثلاً للموظف الملتزم، ولعله من ناحية أخرى كان يرى أن هذه فرصة لتدعيم التنظيم الأخواني في هذه الناحية القاصية، وهكذا انتقل إلى قنا يوم السبت ٢٢ فبراير سنة ١٩٤١ (من واقع دفتر الشيخ الوالد - رحمه الله -).

وفي ٢٩ المحرم سنة ١٣٦٠ الموافق ٢٧ فبراير سنة ١٩٤١، أي بعد خمسة أيام من سفره كتب إلى الوالد. بعد الديباجة:

" نزلت قنا ولابد أن الأخ عبد الرحمن أفندي أخبركم بما رأى: الحالة طيبة من كل نواحيها ولولا بُعد قنا ولولا مشاغلنا بالقاهرة، ولولا ما يحيط بهذا النقل من ملايسات لفضلتُ البقاء في قنا فعلاً. العمل مريح والمدرسة لا بأس بها والناظر والموظفون مهذبون، والأخوان هنا بخير والحمد لله على كل حال.

قابلت مراقب المنطقة أمس وتحدث إليّ طويلاً، وتكلم معي حول خطتي العامة في قنا، وما ستكون عليه، وقد طمأنته ولا أدري هل هذا مجرد تفاهم، أو أن عنده تعليمات من المعارف بتوصيتي.

على كل حال في عزمي أن أكون هادئاً كل الهدوء هذا الشهر الذي اتفق عليه والله المستعان، ولعلكم جميعاً بكل خير.

يحسن أن يكون عنواني الشيخ محمد عبد الظاهر صاحب مكتبة الأخوان المسلمين، ومنه إليّ، ولا تحرموني صالح دعواتكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولدكم حسن البنا

كان عبد الله أفندي الصولي قد حضر إلى القاهرة ليأخذ الأولاد إلى الإسماعيلية، وقد كتب إليّ بذلك من الإسماعيلية، فأرجو التكرم بمقابلته وإفهامه أن الأوفق إبقاء كل شيء على ما هو عليه، حتى نرى ما يكون والله المستعان.

وبعد بضعة أيام في ٤ صفر سنة ١٣٣٦ - ٢ مارس سنة ١٩٤١ أرسل خطابه الثاني:

سيدي الوالد الجليل حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ورد خطابكم الكريم، فسررت به، وجزاكم الله أفضل الجزاء ونفعني برضائكم ودعواتكم، وتولانا جميعاً برعايته إنه نعم المولى ونعم النصير.

العمل بالمدرسة مريح لا يتعب والحمد لله، وأنا مستريح في منزلي باللوكاندة، وقد استأجرنا مكاناً للأخوان ولكنه لا يصلح للإقامة، فسأظل حيث أنا حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، حضر إليّ قنا الشيخ الشعشاعي من رحلة بالصعيد الأعلى، وهو يزاول الوعظ والتدريس بالمساجد وبالدار، وأراحمي وجوده من كثير من المقابلات والشئون.

لم أتسلم مرتبي إلى الآن، ولا أدري متى يكون هذا التسلم، ولا ما ستصنع الوزارة بالنسبة للشهر الماضي، وهل ستحتسب الأيام التي تأخرتها خصماً أو أجازة؟ المدرسة هنا في انتظار إفادة الوزارة، ومعني

من النقود ما يكفيني فترة، وأستطيع أن أتصرف على كل حال، وقد كتبت لعبد الباسط أفندي قبل أول الشهر ولعبد الرحمن أفندي أول من أمس بالنسبة لكم، ولا أدري ما موقفهما، وأريد أن أطمئن على ناحيتكم وماذا صنعتم؟ المنزل عندي لا يحتاج إلى شيء الآن فيما أعتقد وقد كتبت للشيخ توفيق أن يدفع الإيجار لصاحبه وأحاسبه فيه، أنا في انتظار إفادتكم عن شئونكم.. الخ.

وفي ١٦ من ربيع الآخر سنة ١٣٦٠ (١٤ مايو سنة ١٩٤٢) كتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ومن والاه

قنا ١٦ من ربيع الآخر ١٣٦٠ هـ

سيدي فضيلة الوالد الجليل أعزّه الله وأنا لني حسن رضاه وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

ورد كتابكم الكريم، وأسأل الله تبارك وتعالى أن يتولاكم بجميل المعونة والكلاءة، وصبر جميل وسينتهي كل شيء إلى اليسر إن شاء الله، وما نحن فيه نعمة كبرى والله الفضل والمنة.

سررت كثيراً لشفاء فاطمة ولقد أقلقني أمرها إقلاقاً شديداً، وطمأنني أحمد أفندي تليفونياً مرة، وكتب إليّ عبد الحكيم مرة، حتى اطمأننت والحمد لله على الشفاء.

الحر هنا شديد حقاً بدرجة يقول عنها الناس إنهم لم يشهدوا مثلها في قنا من قبل، ولكني مع هذا مستريح كل الراحة والحمد لله، ولا أدري سر هذا إلا أنه تفضل إليّ، فله الحمد والمنة صحيحة جيدة جداً وأنام بالليل والنهار مستريحاً، وأؤدي عملي في هدوء، وذلك من فضل الله وألاحظ دهشة الأخوان من مزاولتي للعمل في حرّهم أنفسهم وهم قناويون يكسلون فيه.

الجمعية تسير بخطى موفقة، وكانت عندنا بالأمس حفلة كبيرة، دعونا إليه كل الطائفة القبطية، وعلى رأسها المطران، وأقبلوا جميعاً لم يتخلف منهم أحد، وكانت صفقة قوية لمنافقي المسلمين الذين يتزلفون إلى هؤلاء بالفتنة، ولقد كنت صريحاً جداً في لباقة في بسط فكرة الأخوان بصورة حازت إعجاب الجميع والحمد لله وكل شيء على ما يرام وسلام عليكم

ولدكم حسن البنا

والخطاب — ككل — أو معظم — خطابات الإمام الشهيد — رحمه الله — تتطرق بالرضا وحمد الله على توفيقه له، وتمكينه من القيام بمسئوليته القيادية، بصورة أثارت الدهشة. وقد نكون أقل اندهاشاً لأننا عرفنا بعض العوامل التي جعلها الله تعالى أسباباً لتوفيقه. لعل أبرزها إعداده المبكر والمستمر وقد كان الإمام البنا وقتئذٍ في "عز الرجولة" إذ كان سنه ٣٥ سنة وكانت صحته على أفضل ما يكون رجل في هذه السن. لأنه كان معتدلاً في طعامه وشرابه، لا يدخل ولا يخضع لعادة تسيء على الصحة. وكان جليلاً على العمل، يؤمن أن العمل هو "إكسير" الصحة، وهو "الوصفة" التي يصفها لكل من يشكو. وكانت رياضته هي "المشي" ولم يفكر — حتى استشهد في اقتناء سيارة خاصة، وأهم من هذا كله ما كان يحسه من رضوان الله وتأبيده له.

واللفتة التي في آخر الخطاب عن دعوته "للطائفة القبطية" وأنه كان "صريحًا جدًا في لباقة" تمثل المسلك الأمثل: الصراحة مع اللباقة — في هذه القضية التي أصبحت حساسة وشائكة. وفيما نرى فإن عدم الأخذ بمثل هذا المسلك كان هو السبب في تفاقم المشكلة، ومع أن هذا التفاقم لم يصل إلى درجة الأزمة إلا في عهد السادات، فإن بذوره كانت كامنة في "منافقي المسلمين الذين يتزلفون إلى هؤلاء بالفتنة" لأن هذه الزلفى — التي هي في حقيقتها نفاقًا ومجاملة — أوجدت لدى بعض الأقباط رؤية "سرايية" وغير سليمة للحقيقة، وعزفت على أوتار الأطماع والطموح وما تهوى الأنفس.. والأغرب إن الذين أرادوا العلاج سلكوا مسلك "الزلفى" انقاء للحساسية وحرصًا على العدل، بصورة وصلت بهم إلى الظلم وكانوا كالذين قال عنهم قاسم أمين: "عرفت قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بالعدل!!" فزادت درجة التفاقم حتى وصلت إلى نروتها أيام السادات لأنها في حقيقة الحال غرست "الازداوجية" وليس الوحدة. وقد عالجتنا هذه النقطة ببعض الإسهاب في كتابنا "الإسلام هو الحل" (٣٦).

* * *

هذا هو الخطاب الأخير الذي وجدنا بين أوراق الشيخ من قنا، لأن نقل الشيخ لم يطل، فالجهود التي بذلها بعض الأصدقاء مع المسؤولين — على ما جاء في كتاب الأستاذ محمد حسين هيكل — أدت إلى عودته. بصورة عاجلة قد يصورها أنها لم تمهله لقبض مرتب يونيو، كما جاء في خطاب مدرسة قنا الابتدائية للبنين.

حضرة المحترم الأستاذ حسن أحمد عبد الرحمن البنا أفندي

بعد التحية، نخطر حضرتكم بأن الوزارة قررت نقلكم مدرسة عباس الابتدائية بكتابها رقم ١١٧٥ المؤرخ ٢٦ / ٦ / ١٩٤١ على أن يكون إخلاء طرفكم في ١ / ٧ / ٤١ وتاريخ مباشرتكم العمل بمدرسة عباس ٢ / ٧ / ١٩٤١

فالمدرسة تخطركم بذلك، وترجو إرسال توكيل بمرتب حضرتكم لمن ترونه، عن شهر يونيه لصرفه من المدرسة بقنا.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

ناظر المدرسة

وبعودة الإمام الشهيد إلى القاهرة، لم تعد هناك حاجة لمراسلات، ولكننا عثرنا على بطاقتين من الإمام الشهيد — رحمه الله — إلى والده، الأولى بتاريخ ٣ / ٦ / ٤٢ وجاء فيها:

سيدي الوالد الجليل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شرفتم الدار، وعزيز عليّ أن يتأخر هذا الخطاب إلى هذا التاريخ، فقد ظرّفته من أول يوم، ثم أردت إرساله مع أحمد، ثم فضلت أن أحضر به، فشغلت عن ذلك شغلة كثيرة أنستني نفسي، فمعدرة وأنا لهذا شديد الأسف، وأرجو أن تكونوا بكل خير، وسأتحين فرصة قريبة لزيارتكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

القاهرة في ٣ / ٦ / ١٩٤٢

ولدكم حسن البنا

والخطاب يتسم بأدب الإمام الشهيد — رحمه الله — ويبدو أن الشيخ قد زار "الدار" — وهو عمل قلّمَا كان يقوم به، — ولعله لم يزر الدار إلا بعد أن أعيدت، في الأيام الأولى لانقلاب ٢٣ يوليو، وعزل الملك، وأم الشيخ الوالد المصلين وقتئذٍ..

والخطاب الأخير في ١٢ / ٨ / ١٩٤٧ وجاء فيه:

سيدي فضيلة الوالد.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جرى ذكر "الفتح الرباني" أمام الأمير عبد الكريم^(٣٧) فاشتاق إلى الحصول على نسخة منه، وظهر أن الرجل فاضل له إمام بعلم الحديث والفقهِ والدين، وقد اعتزم زيارتكم، وأكد في معرفة العنوان، ولكن يحسن أن ترووه أنتم أولاً، باعتباره ضيفاً، ويحسن كذلك إهداؤه نسخة من الفتح باسمكم، وأجلدها على حسابي، فما رأيكم في هذا الاقتراح؟ وماذا تم في نسختي أنا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حسن البنا

ولا نعلم هل قام الشيخ الوالد — رحمه الله — بالزيارة المقترحة للأمير عبد الكريم، ومن المحتمل أنه لم يقم بها، لأن الشيخ لم يترك مكتبه، أو يتصل بشخصيات عامة، إلا بعد استشهاد ابنه، وفي سبيل قضيته، كما يمكن أيضاً أن يكون قد زاره، فلم يكن هناك ما يمنع الشيخ من ناحية المبدأ، أو من شخص الأمير عبد الكريم، الذي كان يظفر بتقدير الجميع وتربطه علاقة وثيقة بالأخوان..

* * *

هذا هو الخطاب الأخير، وقد عثرنا بين أوراق الشيخ على صورة لخطاب استقالة الإمام الشهيد من خدمة وزارة المعارف العمومية، ورد الوزارة، ومن الخير إيرادها هنا ليكونا مسك الختام فجاء في خطاب الاستقالة:

(37) الأمير عبد الكريم الخطابي — الزعيم المغربي الكبير وبطل ثورة "الريف" وكان وقتئذٍ لاجئاً سياسياً بالقاهرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب المعالي وزير المعارف العمومية.

"وبعد، فنظراً لرغبتني في التفرغ لخدمة الدعوة التي عاهدت الله على أن أحيي لها وأموت في سبيلها وهي "دعوة الأخوان المسلمين" أرجو أن تفضلوا معاليكم فتقبلوا استقالتي من عملي الرسمي بالوزارة، ابتداء من أول أكتوبر سنة ١٩٤٦.

وبما أنه قد مضى علي في خدمة الوزارة تسع عشرة سنة فأرجوا إجازتي بالانقطاع عن العمل ابتداء من أول مايو سنة ١٩٤٦ واعتبار ما بقي من هذا الشهر من أيام الدراسة وهي لا تتجاوز أسبوعين مع الأجازة الصيفية أجازة اعتيادية.

كما أرجو — إذا وافقتم معاليكم — باتخاذ اللازم لصرف مكافأتي عن مدة خدمتي التي بدأت من يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٢٧ على تاريخ هذه الاستقالة إذا كانت القوانين واللوائح المالية تجيز ذلك.

وتفضلوا معاليكم بقبول احترامي والسلام عليكم ورحمة الله...

تحريراً في ٢١ جمادى الثاني سنة ١٣٦٥ هـ

الموافق ٢٣ أبريل سنة ١٩٤٦

لحضرة الأستاذ المحترم ناظر مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالقاهرة لاتخاذ اللازم..

وهذه الاستقالة في هذا الوقت حرمت الإمام الشهيد من أن ينال معاشاً وأن يقتصر الأمر على "مكافأة نهاية الخدمة".

وردت الوزارة ردّاً رقيقاً — على غير عاداتها — مع الموظفين في مثل هذه المناسبة، وإن كان هذا هو ما يفترض أن يكون بالنسبة لمثل الأستاذ البناء:

حضرة المحترم حسن أحمد عبد الرحمن أفندي

بناء على طلبكم قررت الوزارة رفع اسمكم من عداد موظفيها ابتداء من أول أكتوبر سنة ١٩٤٦

وإني أنتهز هذه الفرصة، لأعرب لكم عن عظيم الشكر لما قمتم به من الخدمات القيمة، أثناء مدة خدمتكم بالمعارف.

واقبلوا فائق الاحترام.

وكيل المعارف

يبلغ مع جزيل التقدير وأطيب التمنيات جزاءً وفاقاً لحسن ماضيه.

ناظر المدرسة

يبلغ لحضرته مع عاطر ثناء المدرسة.

وكيل المدرسة

١٩٤٦ / ٦ / ٢٧

القسم الثاني

وهو يتضمن: توثيق ما جاء بالفصلين السابقين:

الفصل الثالث: توثيق ما جاء بالفصل الأول خاصًا بالشيخ الوالد رحمه الله

الفصل الرابع: توثيق ما جاء بالفصل الثاني خاصًا بالإمام الشهيد رحمه الله

الفصل الثالث

توثيق ما جاء بالفصل الأول خاصاً بالشيخ الوالد رحمه الله

Handwritten Arabic text, likely a letter or document related to the subject of the book.

خطابان من قاضي محكمة رشيد للشيخ الوالد بمناسبة تعيينه مأذونا بالمحمودية .

[انظر ص ٢٦]

Aspiré de naissance: 1881
Lieu de naissance: Shamseddin
Nationalité: Égyptienne
Cheveux: Bruns
Yeux: Bruns
Marques particulières: Aucune

Observations:
1. Cette carte doit servir uniquement de pièce justificative pour les opérations postales.
2. Les cartes d'identité relatives pendant deux ans, sont délivrées par les bureaux ou services postaux, pourvu que le demandeur soit connu matériellement à la poste ou qu'il soit en mesure de justifier de son identité d'une manière satisfaisante. Les cartes doivent être libérées au cas de décès.

Delivered for the bearer or the service to whom it is addressed.

812 148

Handwritten Arabic text, including a letterhead for 'O. H. E. M. S.' (Oman, Hadramout, East Africa, and the Sudan).

خطاب مرسل الى جريدة الاخوان المسلمين وقد وجدت عشرات من هذه الظروف بمكتب الشيخ الوالد دون ان يكتب عليها اي عنوان . ومع هذا كانت تصل الى مكتب الشيخ بحارة الرسام بالغورية .

[انظر ص ٣٠]

Handwritten Arabic text, including a letterhead for 'O. H. E. M. S.' and a circular stamp.

خطاب من الكاتب الاسلامي الكبير محمد فريد وحدي الى الوالد رحمه الله

[انظر ص ٣٠]

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي جعل في خلقه حكمة لا يعلمها الا هو
والله اعلم بالصواب

١٤٥٩ - ١٤٥٨ هـ
١٩٠٠ - ١٩٠١ م

الحمد لله الذي جعل في خلقه حكمة لا يعلمها الا هو
والله اعلم بالصواب

خطاب الشيخ أبو العيون الى الشيخ الوالد رحمه الله [انظر ص ٦٩]

١٢ خارج وصيه باشا صاحب
نواذ والقعدة ١٢٦٦
٢٥ سبتمبر ١٩٠٩
حضرة الأستاذ الجليل الشيخ احمد عبد الرحمن البنا
صلى الله عليه وسلم
عاش طبعه من كتابك الجليل المعنوية بالفتح الرباني
بعد العجز الثالث عشر ونتمه كل حين وفان
على اقتار باقى اجزائه واربعون من المرحوم على
انما قبل مفارقتكم هذه الدار بعد طول
انه شاء الله فانه عمك هذا عمل مفيد يستعمل
فيما اعلم انه كان على صحيح وسبحانك الله اعلى
اجزى المتوبة
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي جعل في خلقه حكمة لا يعلمها الا هو
والله اعلم بالصواب

خطاب عبد العزيز محمد باشا وزير الاوقاف [انظر ص ٧٠]

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي جعل في خلقه حكمة لا يعلمها الا هو
والله اعلم بالصواب

خطاب ابو بكر مخيون - [انظر ص ٧١]

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي جعل في خلقه حكمة لا يعلمها الا هو
والله اعلم بالصواب

خطاب صالح عبد الله سوييه [انظر ص ٧٢]



صورة نادره للإمام الشهيد في ثلاثينات عمره

دفعه العليم بدار العلم ١٩٢٧
والأمام الشهيد في الأقطى ومؤثر عليه بعلامه الأحرار
وكان ترتيبه الأول



١٠٠
 ١٠١
 ١٠٢
 ١٠٣
 ١٠٤
 ١٠٥
 ١٠٦
 ١٠٧
 ١٠٨
 ١٠٩
 ١١٠
 ١١١
 ١١٢
 ١١٣
 ١١٤
 ١١٥
 ١١٦
 ١١٧
 ١١٨
 ١١٩
 ١٢٠

وذا فتمت هذه المذكرة في يومه على اقرانكم وزيوركم انتم في ارضكم
 هذه المذكرة المشتملة على...
 وذا فتمت هذه المذكرة في يومه على اقرانكم وزيوركم انتم في ارضكم
 هذه المذكرة المشتملة على...
 وذا فتمت هذه المذكرة في يومه على اقرانكم وزيوركم انتم في ارضكم
 هذه المذكرة المشتملة على...

وذا فتمت هذه المذكرة في يومه على اقرانكم وزيوركم انتم في ارضكم
 هذه المذكرة المشتملة على...

واما في هذه المذكرة...
 وذا فتمت هذه المذكرة في يومه على اقرانكم وزيوركم انتم في ارضكم
 هذه المذكرة المشتملة على...

بسم الله الرحمن الرحيم
 الحمد لله رب العالمين
 والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله
 أما بعد...

بسم الله الرحمن الرحيم
 الحمد لله رب العالمين
 والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله
 أما بعد...

هذه المذكرة المشتملة على...

بسم الله الرحمن الرحيم
 الحمد لله رب العالمين
 والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله
 أما بعد...

بسم الله الرحمن الرحيم
 الحمد لله رب العالمين
 والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله
 أما بعد...

